خفقات قلب

خفقات قلب (رواية)

فرانسواز ساجان

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

فرانسواز ساجان. – تقديم ومراجعة: خالد عوض – خفقات قلب

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

٢٢٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٩ – ٨٦٣٨٢ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٣٤٧ / ٢٠٢٢

فرانسواز ساجان

خفقات قلب

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

تقديم

كانت الكاتبة الفرنسية "فرانسواز ساجان" (١٩٣٥–٢٠٠٤) تبدي دهشتها ممن يزعمون أنها كتبت قصة حياتها في رواياتها خصوصًا عملها الأول "صباح الخير أيها الحزن"، كانت ترد عليهم بقولها "لم أرد أن أكتب قصة حياتي أبدًا، لأنها تضم –ولحسن الحظ– العديد من الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة وثانيًا لأن ذاكرتي أصبحت متعبةً تمامًا". كما أنها لم تكن تستترُ وراء أسماءٍ مُستعارة ، ولا تعبرُ عن رؤيتها على لسان شخصيات الرواية بل تذكرُ ما ارتبط باسمها لدى الجمهور، ولا تنكرُ فوائد الصورة التي كونها الناس عن شخصيتها.

ولدت فرانسواز ساجان في الحادي والعشرين من يونيو عام ١٩٣٥، ببلدة كاجرك، بالجنوب الغربي لفرنسا. وهذه المنطقة هي معقل عائلتها، اسمها الحقيقي «فرانسواز كواريز»، وهي ابنة أحد رجال الصناعة الفرنسيين، سليل أسرة كواريز شديدة الثراء، وذات الاسم الشهير في عالم الصناعة الفرنسية، والأسرة المعروفة بنزعتها الكاثوليكية المتشددة ألحقت ابنتها بمدرسة تتبع ديرًا كاثوليكيًا، ومنها حصلت على الشهادة الثانوية في عام ١٩٥٣، ولم تكن أجواء المدرسة والدير تناسب الروح المتمردة التي تسكن جسد فرانسواز، والتي وجدت فرصتها للانطلاق حينما انتقلت إلى باريس لتدرس في السوربون، لكنها قررت أن تتعرّف على باريس الأخرى التي أحبَّتها بجنون، ففشلت في امتحان القبول في جامعة السوربون، ثم انطلقت لتجعل لتلتقي بالمثقفين في المقاهي بالحي اللاتيني لجامعتها، وهناك التقت بالفنانين والشعراء

والأدباء، وهناك أعلنت تمردها على عائلتها وعلى نفسها؛ فتخلت عن اسم العائلة واتخذت لنفسها اسم "فرانسواز ساجان"، وهو اسم إحدى شخصيات الأديب "مارسيل بروست" في رائعته " البحث عن الزمن الضائع".

حرية دون سعادة

عاشت فرانسواز الحياة التي تريدها، منحتها نفسها كل ما أرادت من حرية، لكنها لم تكن سعيدة؛ فقد اعتراها حزن وجوديٌّ ملأ جوانحها، ودفعها للانفراد بنفسها في حجرتها لمدة سبعة أسابيع متواصلة لتبث أحزانها للأوراق، وهكذا ولدت روايتها الأولى "صباح الخير أيها الحزن"، التي أصدرتها في مطلع خريف ١٩٥٤ وقبل أن تتم عامها الثامن عشر. وقد عبر الأب بعد أن قرأ الرواية عن رأيه أو صدمته بصراخه في وجه ابنته: "ماذا بحق الله قد أوحى إليك بكتابة هذا؟".

على الرغم من حدة اعتراض الأب حققت الرواية نجاحاً ساحقاً، ومع أنها أثارت مشاعر الدهشة؛ فإنها جلبت النفور من جانبٍ آخر، مثلما جلبت لها جائزة النقاد، وكانت قد استعارت عنوان روايتها من قصيدة لأحد الشعراء الفرنسيين، مثلما استعارت الاسم الثاني لديها «ساجان» من رواية لمارسيل بروست.

بهذه الرواية شكلت فرانسواز ساجان ظاهرة فريدة، ليس فقط في الأدب الفرنسي، بل أيضًا في الأدب العالمي، فالرواية بما أثارته من موجات انتقاد وتجريح من ناحية، وتشجيع ومديح من ناحية أخرى جعلتها واحدةً من أشهر الكتاب؛ فقد كانت صريحة وعفوية ومبدعة وساحرة حين صَوّرت

حياة أسرة برجوازية حيث يعيش الأب وابنته في بيت واحد، ولكن لكل منهما حياته العاطفية والاجتماعية الخاصة.

كما حظت فرانسواز بإعجاب جيل الشباب بجرأتها وعفويتها، واستطاعت أن تُخرجهم من الأحزان التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية، وصورت لهم حياة جديدة يحلمون بها، وأصبحت بعدها من أشهر الروائيين في فرنسا وأيضا في العالم، خصوصًا بعد ترجمة روايتها للكثير من اللغات ومنها العربية.

الانطلاقة

بدأت فرانسواز ساجان حياتها الأدبية روائيةً، ونشرت فيما بعد «ابتسامة ما» عام ١٩٥٦ ثم «في شهر في سنة» في العام التالي، وبعد ذلك بعامين أصدرت «هل تحبين برامز؟» عام ١٩٥٩ غير أن هذه الأعمال لم تحرز النجاح الذي أحرزته «مرحبًا أيها الحزن» لكنها دعمت مكانتها في عالم الأدب، ومنذ ذلك الحين تنوع إنتاجها بحيث أخذ يراوح بين المسرحية والرواية؛ فنشرت «الغيوم العجيبة» عام ١٩٦١ ثم قدمت للمسرح «أنغام الكمان أحياناً» بالإضافة إلى مسرحيات أخرى، وفي عام ١٩٦٥ ظهرت لها رواية «نوبة الاستسلام» ثم عادت إلى الكتابة المسرحية فنشرت «حارس القلب».

وتوالت أعمال ساجان لتصل إلى نحو خمسين عملًا، واستمر الانقسام بشأن تقييم أعمالها وشخصها، فهناك من أشاد بموهبتها في مواجهة من ادّعى ضحالتها ومحدودية قدراتها الإبداعية، وهناك من اتخذ منها أيقونة للحرية في مقابل من رآها رمزًا للانفلات الأخلاقي، ذلك أن الصور الشخصية التي تم

تداولها لها، ونشرتها الصحف والمجلات أصبحت تعبر عن طريقتها في الحياة، التي ربما رفضتها القوى الاجتماعية في بلدها، كانت صورها إما وهى تمسك في يد كأسًا وفى الأخرى سيجارة، أو وهى تقف بجوار سيارة رياضية غالية الثمن بشكل مبالغ فيه، فيبدو أن الشهرة والأموال التي تدفقت عليها بغير حساب قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، أفقدتها توازنها، وجعلت الأمور تختلط عليها.

كان الأدباء الفرنسيون آنذاك يخوضون معارك أدبية من أجل إعادة النظر في المسرح التقليدي وفي الجو الرومانسي عامة، وبدأت تظهر بوادر حركة روائية ومسرحية جديدة، فقام مجموعة من الأدباء يؤكدون الإشادة بحب مباهج الحياة والتخلص من روح التشاؤم والغضب، التي كانت تثقل كاهل الأدب الفرنسي، وكانت وسيلتهم في ذلك كتابة الروايات والقصص القصيرة التي تجمع بين الأناقة والمرح والتحرر، كانوا من أتباع «مذهب ستندال» وأخذوا بنزعته الفردية التي تهدف إلى حب الذات والسعي وراء تحقيق النصيب الأوفر من السعادة للإنسان.

فرانسواز ساجان شاركتهم في السير وفق هذا الخط، حتى ارتبط فنها الروائي بهذا التيار المتحرر، حيث تتميز كتاباتها بالبساطة، كما يجري أسلوبها في جمل صغيرة سهلة واضحة، وكانت تصور أنماطاً من البرجوازيين العاطلين المتحررين، المنغمسين في الملذات، بالإضافة إلى شخصياتٍ أخرى لمتعجرفين لا يبالون بأمور الحياة الجادة، ويتميز أسلوب فرانسواز بالرقة وعمق الإدراك والوعي النفسي، ففي رواياتها ينبض القلب بكل انفعال لكن من دون صياح أو بكاء، وكل شخصية تنطق بما تريد قوله أو اقتراحه دون أن تجهد نفسها،

لأنها عندما تعبر عن شيء فإنها تقوله بإخلاص، ومن ثم استطاعت فرانسواز أن تعالج أمور الحياة عن طريق شخصياتها من موقع المعتد بنفسه، وكل ذلك بشيء من التنازل الذي ينطوي على عدم الاكتراث.

خفقات قلب

بساطة أسلوب ساجان وعفوية لغتها وصدق تصويرها وقدرتها على التغلغل في نفسيات شخصيات رواياتها واختيار المشاغل اليومية العادية للناس، جعلت رواياتها الأكثر مبيعًا، ومنحتها قلوب الناس على مختلف انتماءاتهم الفكرية وميولهم الأدبية ليس في فرنسا فقط، وإنما في كل بلدان العالم التي تَرجمت رواياتها إلى لغاتها.

فقد قيل عنها: "لقد خرجت فرانسواز ساجان لتكسر الصمت وتفجر الغضب وتنهي القلق الذي سيطر على جيل الشباب في أوروبا بعد سنوات الحرب المدمّرة. خرجت لتعبّر عن مطامح جيلها ورغباتهم وأحلامهم، وتبوح بهمومهم ومشاكلهم اليومية بعيدًا عن صخب الحرب والذكريات المؤلمة".

تعتقد فرانسواز ساجان أنه ليس ثمة ما يدعو لإجهادنا بكثرة إلقاء الأسئلة، وإعمال الفكر والوقوع فريسة للاستسلام، بل الأجدر بنا أن نستغل الموقف أحسن استغلال وأن نخرج منه بكل كياسة، لكن ثمة بعض النقاد كانوا يرون في أعمالها الروائية مجرد كتب صغيرة، لا حرارة فيها، إذ لا تقع فيها أحداث ذات شأن كبير، اللهم إلا بعض المواقف الغرامية التي لا تصدر عن رغبة، حيث نجد شخصيات بلا حياة، تترك نفسها نهباً للسأم والضيق، كما يمكن للقارئ أن يرى فيها انعكاسات صادقة لصورة الشباب

العاطل، الذي أضناه الملل والاكتئاب، شباب لا يعرف حتى ما يريده، ولا طموح لديه سوى ركوب السيارات الفارهة، غير أن هؤلاء النقاد يعترفون بأن أسلوب فرانسواز ساجان بسيط خالٍ من التصنع، كما أنه مملوء بالتلميحات وبردود الفعل ضد الأدب الملتزم.

وكانت فرانسواز ساجان تعلن دائمًا سخريتها من حركة تحرير المرأة، ولما سئلت عن ذلك قالت: "من خلال نظرتي لتجارب الغالبية العظمى من النساء أقول إن حركة تحرير المرأة أكذوبة كبيرة اخترعها الرجل ليضحك على المرأة".

كذلك وقفت فرانسواز ساغان ضد دعاة الرواية الجديدة الذين سعوا بمحاولاتهم التجديدية إلى تقويضِ أعراف ثابتة في الكتابة والخروج من الأطر التقليدية؛ إذ تشيدُ صاحبة "خفقات قلب" برواد الرواية الكلاسيكية، وتستخفُ بمنجز رواد الرواية الحديثة لأنهم _كما وصفتهم _ يلعبون برصاصات فارغة تاركين للقراء رسم شخصياتهم الشاحبة، وكما نجحت في تصوير أحلام أبناء جيلها من الشباب في رواية "صباح الخير أيها الحزن"، واصلت نجاحاتها في رواياتها التالية، وخصوصًا "خفقات قلب"، ونجد بطلتها "لوسيل" تكاد تكون هي بطلة "صباح الخير أيها الحزن"، لكن بعد أن تقدم بها العمر نسبيًا، والرواية مقسمة إلى أربعة أجزاء منحتها المؤلفة عناوين بأسماء فصول السنة، وبدأتها بالربيع، ربيع حب لوسيل لأنطوان، الذي شهد صيفًا حارقًا ثم خريفًا مُذبَلًا أسلمه لبرد الشتاء الذي قضى عليه، لكن قلب لوسيل لابد له أن يواصل الخفقان بالحب؛ ففي الوقت الذي كان حب أنطوان يذبل فيه، كان حب شارل يتفتح وينضر؛ فتزوجته في الختام لتبدأ ربيعا جديدًا، ولتستمر دورة الحياة.

السيجارة الأخيرة

ظلت فرانسواز ساجان تقدم إبداعاتها المتواصلة حتى أواخر التسعينات من القرن العشرين، مخلصةً لأسلوبها الشهير في الرواية، الذي يركز على سيكولوجية الغوص في أعماق شخصيات يدور بينها عادةً حوار عميق مسترسل، محمَّلٌ بمفاهيم الفلسفة الوجودية.

ولم تكتفِ ساجان بكتابة الرواية، بل كتبت للمسرح، إضافة للسيرة الذاتية وبعض الأشعار الغنائية. ورغم أن النقاد أجمعوا على أن حوارياتها متميزة، إلا أن أعمالها المسرحية لم تنلِ النجاح الذي يرضيها، فعادت تركز جهودها في كتابة الرواية.

وقد تزوجت ساجان مرتين، الأولى من محرر صحفي يكبرها بعشرين عاماً، لكن زواجها لم يدم لأكثر من عامين وافترقا في عام ١٩٦٠، لتعود بعد عامين وتتزوج بنحاتٍ أمريكي فاشل، عرف عنه أنه زير نساء ولم يدم زواجها الثاني لأكثر من عام واحد. ثم بدأت تقيم علاقات مع عدد من النساء بعضهن كنَّ شخصياتٍ معروفة، صحفيات وكاتبات. وقد سُئلت مرة عما إذا كانت تؤمن بالحب، فأجابت بكل بساطة: " أنا أؤمن بالرغبة التي قد تدوم سنتين أو ثلاث سنواتٍ على أكبر تقدير، أما الحب فلا تسألوني عنه".

لكن ساجان برغم كل ما اكتنف حياتها الشخصية، أحبت عملها، كما عشقت السفر ودارت في العديد من دول العالم كالولايات المتحدة الأميركية؛ حيث أقامت الكثير من الصداقات مع نجوم السينما. كما عرف عنها تعاطيها المفرط للمخدرات، فقد تعاطت خلال مراحل عمرها المختلفة أنواعًا

من المخدرات تراوحت بين الكوكايين والمورفين والمشروبات الكحولية. وفي عام ١٩٩٠ قدمت للمحاكمة بتهمة حيازة الكوكايين.

ومن الطرائف التي تروى عنها أن الشرطة جاءت مرةً تفتش بيتها بحثاً عن مخدرات فقام كلبها "بانكو" بقيادة رجال الشرطة إلى مكان الكوكايين، وحين وجده بدأ يلعقه فصاحت ساجان: "أرأيتم حتى بانكو يحبه فلِمَ تحاسبونني؟".

ومع مطلع القرن الجديد تدهورت صحتها وتوقفت تمامًا عن الكتابة بل لم تتمكن في عام ٢٠٠٢ من المثول أمام المحكمة في قضية رفعتها عليها مصلحة الضرائب الفرنسية؛ فحكمت عليها المحكمة بالسجن مع وقف التنفيذ.

وقد ظلت ساجان طوال عمرها تحتقر الموت، وقالت أكثر من مرة إنها تفضل أن يأتيها الموت فجأة مع هزة أرضية، في الوقت الذى تعانق فيه حبيبها، وهذا ما كان يعكس حجم وحدتها الداخلية، مثلما كان يعكسه تمجيد الكذب، هذا الموت لم يحدث لها، لأنه ما كل ما يتمنى المرء يدركه، لقد توفيت على إثر معاناتها من مرض في الرئة والقلب، وأُدخلت إلى المستشفى، واضطرت لبيع بيتها الأنيق الفاخر، وأن تقيم في أيامها الأخيرة في بيت أحد أصدقائها.

وفي ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤، أتاها الموت، فقد توفيت بجلطة دماغية ودفنت حسب رغبتها في مسقط رأسها، وقد قالت الصحافة الفرنسية: "لقد أطفأت سيجارتها الأخيرة ورحلت"، بينما قال الرئيس الفرنسي –في ذلك

الوقت– "جاك شيراك" في تأبينها: "فقدت فرنسا بموتها أحد أهم كتّابها وأكثرهم حساسيّة، وعلماً من أعلام الأدب الفرنسي".

خالد عوض

الجزء الأول

الربيع

الفصل الأول

انسابت نسمة مفاجئة إلى داخل الحجرة، هزت الستارة فجعلتها كالشراع.. ومالت الزهور في الزهرية الكبيرة.. فطار من عينيها النعاس، كانت تلك هي أولى نسائم الربيع، تحمل أريج الغابات والأحراش والأرض، عبرت أحياء باريس القديمة وشوارعها المفعمة بالعطر حتى وصلت إلى غرفتها في الفجر، قبل أن تستفيق تمامًا، بلذة الحياة.

أغمضت عينيها، وانكفأت على بطنها، ووجهها غارق في الوسادة، وأخذت تتحسس بيدها الساعة التي كانت على الأرض، لا شك أنها نسيتها كما تعودت أن تنسى كل شيء، ثم نهضت بحذر، وأطلت برأسها من النافذة، وما زالت العتمة مخيمة، والنوافذ المواجهة لنافذتها مغلقة، لم يكن لهذه النسمة أي حق في أن تجيء في مثل هذه الساعة، وعادت إلى سريرها من جديد بعد أن لفت ملاءة السرير حول جسدها بإحكام، وتظاهرت بالنوم بضع لحظات، لكن عبثًا.. فالنسمة ملأت فضاء الغرفة، أحست بها من تمايل الزهور ورعشة الستارة، وبين لحظة وأخرى، كانت تهب عليها كأنها تناشدها وهي تحمل كل عطر الريف:

– هيا... تعالَي معي... إلى النزهة.

لكن جسدها الواهن كان يرفض الحركة. وما زالت بقايا أحلام تداعب رأسها، وابتسامة رضا ترتسم على شفتيها تدريجياً وقد ترامى إلى خيالها... الفجر، الريف في الفجر، وترامت إلى بصرها الزهور الأربع على الشرفة،

أوراقها الدقيقة ومن ورائها السماء البيضاء، وترامى إلى سمعها صوت الحصى في الفناء تحت أقدام الكلب.. وترامت إلى خيالها أطياف الطفولة الدائمة.

ما الذي يجعل الطفولة لطيفة محببة دائماً، على الرغم من أن الكتاب يشتكون منها، وعلى الرغم من نظريات التحليل النفسي؟

يكفي أن يهتف الإنسان بينه وبين نفسه: آه، حين كنت صغيرًا.. حتى يعود إليه هذا الإحساس بلطف الطفولة؛ إنه الشوق لاسترجاع هذا الإحساس بعدم المسئولية... ولكنها لم تقل لأحد أنها لم تفقد هذا الإحساس بعدم المسئولية...كانت تحس أنها ما زالت طفلةً أبدًا.

دفعتها هذه الفكرة لأن تنهض من مكانها، وبحثت بعينيها عن "الروب" فلم تجده، لابد أن أحدًا وضعه في مكان ما. ولكن أين؟؟ وفتحت الدواليب وهي تتنهد، لن تتعود إطلاقًا على هذه الحجرة ولا على غيرها.. إن الديكور لا يستثير في نفسها شيئًا، رغم أن الغرفة جميلة، سقفها عالٍ.. لها نافذتان واسعتان تطلان على الشاطئ الأيسر لنهر السين، والسجادة لونها رمادي يميل إلى الزرقة، مريحة للعين والقدم، والسرير يبدو كأنه جزيرة وحوله قطعتان فقط من الأثاث، منضدة صغيرة، وأخرى قصيرة بين النافذتين، من طرازٍ أصيل، كما يقول شارل.

دخلت إلى غرفة "شارل"، وجدته غارقاً في النوم، والنوافذ مغلقة، ومصباح سريره مضيء، وكأن النسمة لم تحرك فيه شيئًا، وكانت الحبوب المنومة إلى جوار علبة السجائر، والولاعة والمنبه المضبوط على الساعة الثامنة وزجاجة المياه الغازية، وجريدة "الموند" ملقاة على الأرض.. وجلست على السرير تنظر إليه.

وشارل في الخمسين من العمر.. له ملامح جميلة، فيها شيء من الرخاوة، وتبدو عليه التعاسة حين ينام، وفي هذا الصباح بالذات كان يبدو أكثر حزنًا وتعاسةً من المعتاد.

كان يملك أموالًا وعقاراتٍ، ولكن علاقاتِه الإنسانية كانت تصطدم بكثير من العقبات، لأنه كان خجولاً ومؤدباً مما يجعله أحيانًا باردًا. وكانا يعيشان معًا منذ عامين في شقة واحدة، يريان نفس الناس ويتقاسمان أحيانًا نفس السرير.

واستدار شارل تجاه الحائط وتنهد، وعادت إليه فكرتها القديمة؛ لا بد أنها تسبب له التعاسة وعلى أي حال، فلا بد أن يكون تعسًا مع أية امرأة أخرى ما دامت تصغره بعشرين عامًا، وما دامت مجنونة باستقلالها.

وتناولت سيجارة وأشعلتها في هدوء، وعادت إلى أفكارها. إن الشيب يزحف إلى رأس شارل، والعروق تظهر في يديه الجميلتين، كما أن شفتيه بدأتا تفقدان لونهما قليلًا.

وفاجأتها موجة من الحنان تجاه شارل؛ فكيف يمكن أن يكون بمثل هذه الطيبة وهذا الذكاء ومثل هذه التعاسة؟! إنها لا تستطيع أن تفعل له شيئًا؛ فلا يمكن مواساة أحد لمجرد أنه يعيش، أو لأنه يموت.

وبدأت تسعل، وأحست بأنها أخطأت لأنها دخنت سيجارة قبل أن تتناول شيئًا من الطعام.. لابد من عدم التدخين على الريق أو شرب الخمر أو إرهاق القلب أو إنفاق المال، أو الإسراف في الحب، أو أي شيء، تثاءبت، سوف تأخذ السيارة وتلاحق النسيم بعيدًا في الريف. ولن تشتغل

اليوم شأنها بالأمس، فلقد فقدت عادة العمل بفضل شارل.

وبعد نصف ساعة كانت تسير في طريق نانسي، وكان الراديو في سيارتها المكشوفة يذيع قطعة موسيقية.. هل هي من تأليف جريج، أم شومان، أم رحمانينوف؟ على أي حالٍ إنه مؤلف رومانسي؛ لكن من هو؟؟

أقلقها السؤال.. وأطربها في الوقت نفسه.

إنها لا تحب الثقافة، لقد استمتعت إلى هذه القطعة عشرين مرة، وأحست أن مؤلفها وضعها خصيصًا للحظات الهزيمة والحنان، ولم تكن تدري شيئًا عن مصدر عذابها.

لا شك أنها تتقدم في السن.. لكن هذا لم يعد يهمها. فلم تعد تفكر في هذا الأمر منذ زمن؛ بل لم تعد تنظر في المرآة، ولم تعد تريد أن تتعرف على نفسها بعينيها، ولم تعد تفعل شيئًا سوى أن تترك الحاضر يجري.. كما يجري نسيم الفجر الطليق.

الفصل الثاني

صوت السيارة المتكرر الآتي من ناحية الفناء أيقظ شارل من نومه، فسمع "لوسيل" تغني وهي تقفل باب الجراج، وتساءل مدهوشًا:

–كم تكون الساعة؟

كانت ساعته تشير إلى الثامنة، وظن لحظة أن "لوسيل" لابد أن تكون مريضة، ولكن صوتها المبتهج طمأنه، وأوشك أن يفتح النافذة وأن يوقظها ولكن امتنع، إنه يعرف جيدًا هذه النوبة التي تعتريها... نوبة الإحساس بالوحدة، أقفل عينيه لحظة يتمالك نفسه ويكبتها كما يفعل دائمًا حتى لا يضايق "لوسيل". ولو أنه كان يصغر عن سنه خمسة عشر عاماً لفتح النافذة وصاح بصوت متحكم عالٍ:

– "لوسيل"، تعالي، لقد صحوت.

ولو أنه كان أصغر سنًا لكانت "لوسيل" قد صعدت وتناولت معه الشاي، وجلست معه على السرير، وضحكا معًا من قلبيهما على شتى الغرائب.. وهز كتفيه.

حتى ولو استطاع ذلك قبل خمسة عشر عامًا، لما جعلها تضحك منه فلم يكن في يوم من الأيام ظريفًا، بل إنه لم يحسَّ في حياته بإحساس الرجل الذي يستخف بالهموم، إلا منذ سنة واحدة.. بعد أن تعرف عليها. ونهض شارل، ونظر إلى منفضة السجائر في دهشة؛ لأنه وجد فيها بقايا سيجارة، وتساءل:

-هل نسيت أن أنظف الطفاية في الليل قبل أن أنام.

مستحيل.. لابد أن "لوسيل" جاءت إلى غرفته، ودخنت سيجارة، وجلست على سريره؛ فآثارها واضحة، خفيفة على السرير، لأنه هو لا يترك أثرًا على الإطلاق... إن الخادمات اللاتي كن يسهرن على حياته وهو أعزب كن يهنئنه على هذه العناية.

إنه هادئ شديد الهدوء، في يقظته وفي نومه، والكثيرون يغبطونه على هدوئه، في صحوه ونومه، كما يغبطونه على تعليمه الراقي، وهناك من الناس من يغبطون الآخرين بسبب ظرفهم وجاذبيتهم، ولكن ذلك لم يحدث له بالمرة، على الأقل بطريقة محايدة ليس وراءها دافع المصلحة.

خسارة... كان يمكن لو قيل له ذلك أن يحسَّ بالسعادة، وكأنه اكتسى بريش لامع ناعم رائع، لكن نبض الكلمات كان يجعله يتعذب، بوحشية وفي هدوء، مثل تلك الكلمات: "الظرف" و"الراحة" و"السهولة". بل -ويعلم الله- كلمة أخرى لا يعرف سببها هي كلمة "البلكونة".

وقد حدث "لوسيل" مرة عن هذا الحنين. ولم يحدثها عن كلمات الظرف والراحة وغيرها، ولكنه حدثها بالذات عما تثيره الكلمة الأخيرة "البلكونة" كلما ذُكرت في نفسه، وقال لها: هل تتخيلين إمكان جمع هذه الكلمة "البلكونة"؟

سألته "لوسيل" إذا كانت في طفولته أشياء لها علاقة بتلك الكلمة ونظرت إليه "حائرة"؛ وككل مرة كانت تنظر إليه برقة كان يحس بأمل مجنون يجيش في أعماقه، ولكنه غمغم شيئًا عن البلكونات في السماء التي وصفها بودلير في أشعاره، كيف تظل سامقةً في الذرى.

ومع ذلك كان يحب "لوسيل"، ولم يستطع أن يدعها تعرف كم يحبها. ولم يستطع مصارحتها، لا لأنه يخشى أن تسيء استغلال اعترافه بحبه، ولكن لأنه يخشى أن يثير ذلك الاعتراف في قلبها الاضطراب أو الحزن؛ ولذلك كان قد فقد الأمل في ألا تهجره؛ فهو لا يمنحها سوى الأمان؛ وهو يعرف أن آخر ما تبحث عنه هو الأمان...

ربما...

ورن الجرس، والتقط جريدة "الموند" من الأرض، وحاول قراءتها فلم يستطع.

لابد أن "لوسيل" قادت السيارة "المكشوفة" تلك التي أهداها إليها في رأس السنة. وقد اتصل بأحد أصدقائه في "الأوتو-جورنال" ليعرف منه أحسن السيارات الرياضية، وأقدرها على الثبات على الأرض، وأضمنها.. إلى غير ذلك.

وكان قد قال "للوسيل" إنها أسهل سيارة يمكن الحصول عليها بسرعة، تظاهر أنه طلبها بالصدفة في البارحة، وأتم شراءها عن طواعية ودون ترتيب، وطارت "لوسيل" من الفرحة، أما هو: فماذا لو اتصلوا به تليفونيًا الآن ليخبروه أن سيارة زرقاء غامقة وجدت في الطريق، وقد انقلبت على جسد امرأة شابة تكشف أوراقها؟ ونهض قائمًا، لقد أصبح غبيًا.

وجاءت الخادمة "بولين" تحمل صينية الإفطار، وابتسم:

- ما هو الطقس هذا الصباح؟

– رمادي.. ولكن الربيع بدأ.

كان عمرها ستين عامًا، وهي تعتني بأموره منذ عشر سنواتٍ، وقالت بطريقة آلية:

– الربيع؟

– نعم. هذا ما قالته لي مدموازيل "لوسيل".

فقد نزلت قبلي إلى المطبخ وأكلت برتقالة، وقالت لي إنها لا بد أن تنصرف بسرعة لأن رائحة الربيع تفوح..

وابتسمت؛ فقد كان شارل يخاف جدًا في الأيام الأولى من أن تكره خادمته بولين لوسيل، ولكن بولين بعد مرور شهرين من الانتظار، انتهت إلى تحديد موقفها: "أن عمر لوسيل العقلي عشرة أعوام" و"السيد" لا يرجحها عقلا، ولا يستطيع حمايتها من الحياة. ولذلك فمن الأفضل أن تقوم هي بهذا الواجب".

ولهذا كانت تطالب لوسيل بحماسة لطيفة أن تستريح، وتأمرها بأن تأكل وألا تشرب، ويبدو أن لوسيل كانت تسعد بهذه الأوامر وتطيعها، وأصبح هذا سرًا من أسرار بيت شارل وأحد أسباب اضطرابه أيضًا، بل وسعادته في الوقت نفسه.

وسألها شارل:

– هل أخذت برتقالة واحدة فقط؟

– نعم. وتطلب منك أن تستنشق الهواء بملء رئتيك حين تخرج، لأن الربيع جاء.

وكان صوتها لا ينم عن شيء؛ فهل كانت تدرك أنه أصبح يستجدي لوسيل؟؟

كان شارل يحس أن بولين لا تأخذ عليه تعلقه بلوسيل؛ بل كل ما في الأمر أنها تؤاخذه على إفراطه في التعلق بها، وإفراطه في الحب الجائع المعذب، لا يدع أحدًا غيرها يستطيع تخمينه، وأصبحت بولين لا تستطيع أن تفسر لنفسها هذا الإفراط الذي يكتمه بشيء من الاتزان والتقبل الأمومي لشخصية لوسيل. ولعل بولين كانت يمكن أن تنعي عليه أنه شغف بشخصية لطيفة، وكان يسهل عليها أن تعاتبه لو أنه تعلق بشخصية شريرة، ولم تكن تدري أن التعلق بشخصية لطيفة قد يكون أحيانًا أفظع.

الفصل الثالث

كانت شقة كلير سانتريه شديدة الفخامة، كانت هكذا دائمًا و منذ أيام المأسوف عليه سانتريه، ولعلها الآن أصبحت أقل فخامة، ويمكن ملاحظة ذلك في بعض التفاصيل الدقيقة؛ فالستائر الزرقاء صبغت عشرين مرة، والعيون الحائرة التي ينظر بها رؤساء الخدم -المستأجرين باليومية- فينكشف حالهم حين يبحثون ولو للحظة أي المنافذ الخمسة يوصل إلى الأوفيس، ومع ذلك، فشقة كلير سانتريه ما زالت من أبهى الشقق في شارع مونتني، وسهراتها من أكثر السهرات التي تلقي كثيرًا من الترحاب.

أما كلير نفسها، فمديدة القامة، نحيفة القد، مفرطة الحيوية، شعرها أشقر يميل إلى العسلي الداكن. عمرها يزيد على خمسين عامًا، ولا يبدو عليها أثر السن، تتحدث بنشوة عن الحب، ولكنها لا تكترث به، وإن كانت تحفظ له ذكريات سعيدة، ولهذا يحبها النساء، ويقبل الرجال على مغازلتها مع شيء من التضاحك، كانت واحدة من شلة النساء متوسطات العمر اللائي يشققن طريقهن في باريس، ويحببن، ويحافظن على آخر صيحة في الموضة.. ونجد دائمًا، على مائدة عشائها الأنيقة أمريكيًا أو أمريكيين أو رجلًا من فنزويلا.

وكلير سانتريه تحذر مدعويها مقدمًا بأن هؤلاء الهابطين على مائدتها قد يكونون ثقلاء الظل، ولكنها دعتهم على أي حالٍ لأسباب تجارية بحتة؛ فهم يتناولون العشاء عندها كتفًا لكتفٍ مع سيدة عصرية، ويتابعون الحديث بصعوبة؛ لأن الحديث يمتلئ غالبًا بالألغاز والغمرات والمعاتبات الغامضة،

ويأملون بعد عودتهم إلى كاراكاس أن يقصوا ما سمعوه في تلك السهرة. وكانت كلير، مقابل هذه الدعوات، تحصل على حق توزيع الأقمشة الفنزويلية في فرنسا، أو العكس، ولم تكن حفلاتها الطروبة تخلو من الويسكي، وكانت في بيتها مدبرة، لا تقول شيئًا كريهًا ما لم تحسَّ بضرورة ذلك أو لخوفها من أن تتهم بالغباء.

وكان شارل بلاسان ينير من أعمدة هذه الحفلات طوال عشر سنوات، كان يقرضها كثيرًا من المال، ولا يذكرها به، كان ثريًا، وكان من قبل جميل الملامح، وكان قليل الكلام وإن كان يتكلم في الوقت المناسب وبين الحين والحين، وكان أحيانًا يضطر إلى إقامة علاقة غرامية مع إحدى النساء اللاتي تحميهن كلير.

وتستمر العَلاقة عامًا أو عامين؛ فيصحبهن إلى إيطاليا في أغسطس، ويرسلهن إلى سان تروبيز للتسلية حين يشكين من حر الصيف، أو يرسلهن إلى ميجيف حين يشكين من الإرهاق في أثناء الشتاء، ثم ينتهي كل شيء بهدية جميلة تعلن نهاية العلاقة، دون إعلان السبب عمومًا. وبعد ستة أشهر تستأنف كلير "الاهتمام" بشئونه من جديد، ولكن هذا الرجل الهادئ العملي بدأ منذ عامين يفلت من يد كلير؛ فلقد أحب لوسيل، ولوسيل لا يمكن إمساكها؛ فهي مرحة طروب مؤدبةٌ غريبة الطور، ولذلك كانت كلير تتعمد عدم الحديث عنها، أو عن شارل أو عن مشروعاتهما.

كانت لوسيل قبل أن تقابل شارل تعمل في جريدة متواضعة، تدَّعي اليسارية، حتى لا تدفع أجورًا عاليةً لمحرريها، وكانت جرأة الجريدة تتوقف

عند هذا الحد من الجرأة، ولم تعد لوسيل تعمل في الجريدة، ولم يعد أحدٌ يعرف ماذا تفعل في الصباح، فلو كان لها حبيب، فلا شك أنه ليس من معارف كلير، على الرغم من أن كلير أرسلت إليها مرارًا عددًا من فرسانها. وكانت كلير تتطرف في الخيار فتقترح عليها إنشاء بعض العلاقات الصغيرة البلزاكية، كما تفعل نساء باريس عادة، ويمكن أن تخرج منها لوسيل بمعطف من فراء الفيزون، وبشيكٍ من شارل يعادل ثمن المعطف أيضًا.

وقالت لها لوسيل بصوت جاف:

– لا حاجة بي إلى النقود، كما أنني أمقت هذا اللون من المعاملات.

وأدارت لوسيل وجهها عن وجه كلير؛ فأصاب الرعب قلب كلير، ولكنها بسرعة عبقرية، مدت يدها لتمسك بيد لوسيل، وقالت:

– أشكركِ جدًا يا صغيرتي، لا بد أن تفهمي ما قصدت إليه، إنني أعرفك جيدًا، وشارل مثل أخي، ولو أنكِ وافقتِ على مشروعي إذن لخِفتُ عليه منك، هذا كل شيء.

وضحكت لوسيل بصوتٍ عالٍ. وكانت كلير تتوقع مشهدًا من مشاهد الحنان، ولكنها بقيت مضطربة حتى رأت شارل في أول عشاء؛ فوجدته لم يتغير واطمأنت، فلا شك أن لوسيل لم تحدثه عن هذا العرض، أو لعلها نسيت بعد حين، وعلى أي حال، فقد بدأ هذا الربيع بداية مشؤومة. وكانت كلير تغمغم وهي تراجع قائمة الطعام.

كان جوني كالعادة أول من وصل من المدعوين، فأخذ يتبعها كظلها. وجوني كان في شبابه منحرفًا، حتى وصل إلى سن الخامسة والأربعين ولم يعد

الآن -بعد يوم من العمل وبعد سهرة تمتد في المدينة- يستطيع أن يجد شابًا جميلًا في منتصف الليل، وأصبح يكتفي بالنظر بعيون مخبولة إلى أي شاب يقابله؛ فالحياة العصرية تقضي على كل شيء حتى على الرذائل، ولا بد للنفوس النقية أن تتهم الحياة العصري بهذه النقيصة.

وأصبح جوني لذلك هو الفارس الحارس لكلير، يصحبها في حفلات الافتتاح ودعوات العشاء، ويستقبل المدعوين في حفلاتها باضطراب وحنكة متقنة لا تخلو من اللطف. وكان جوني يُدعى في الأصل "جان"، ولكن الناس جميعًا وجدوا "جوني" اسمًا ألطف، فرضي به، ولأنه أيضًا كان وهو في العشرين قد اكتسب لكنة أنجلو سكسونية خفيفة.

– في أي شيء تفكرين يا عزيزتي؟ يبدو عليك الاضطراب!

– أفكر في شارل، وأفكر في ديانا، هل تعلم أنها ستصحب "حبها الجميل" هذا المساء؟

لم أرها سوى مرة واحدة، ولكنني لا أعتمد عليه كثيرًا في إدخال البهجة على الحفلة،

كيف يمكنُ أن يكون في الثلاثين ويمثل هذا الجسد، ويكون كئيبًا كل هذه الكآبة؟

– إن ديانا مخطئةٌ في الاشتباك مع هؤلاء المثقفين، ولن تنجح العَلاقة بالمرة.

وقالت كلير:

– ليس جميع المثقفين متعبين، إن بعضهم مُسلُّون للغاية، ثم إن أنطوان ليس مثقفًا؛

إنه مجرد مدير لمجموعة كتب في دار نشر "رينووار"، ثم ماذا يكسب هؤلاء؟ لا شيء!

إنك تعرفه كما أعرفه، وثروة ديانا والحمد لله تكفي لكي..

وقال جوني في تخاذل؛ وهو يفكر في أن أنطوان شابٌّ جميل:

– لا أظن أنه يهتم بها كثيرًا.

وقالت كلير:

– سوف يأتي بلهجته التي يبدو عليها التعب من كثرة التجارب.

وديانا في الأربعين وتملك عدة ملايين، وهو في الثلاثين ولا يملك سوى بضع مئات؛ فكيف تستمر هذه المعادلة؟ وضحك جوني، ثم توقف على الفور.

كان قد وضع "كريمًا" على وجهه لإخفاء تجاعيده، كما نصحه بيير أندريه، ولكن الوقت لم يسعفه لتجفيفه تمامًا. فقد كان عليه أن يُبقي الكريم على وجهه حتى الثامنة والنصف، وكانت الساعة في هذه اللحظة هي الثامنة والنصف، وأخذ يضحك ويرمق كلير بلحظة المندهش.

وكان جوني ملاكًا طيبًا، ولكن هذه الرصاصات التي أصابته في حرب ٤٢، والتي جعلت منه بطلًا من أبطال الطيران، قد هزت شيئًا ما في عقله، ولا بد أن شيئًا قد أصيب فيه، ولعلها حلمة أذنه، ونظرت إليه كلير وهي

مبتهجة، لعلها كانت تتساءل، وهي تنظر إلى أصابعه الطويلة البيضاء، التي ترتب الآن بعذوبة فائقة أزهار المائدة، كيف أمسكت تلك الأصابع سلاحًا؟ وكيف أحرقت طائراتٍ وسط الليل؟

ليس غريبًا أن يحدث كل شيء من البشر، ولعل هذا ما يجعل كلير لا تحس بالضجر، تنهدت بارتياح، ثم توقفت بسرعة عن تنهدها العميق، حين اعترضها ذيل ثوبها؛ لا شك أن كاردان، مصمم الأزياء، يبالغ ويشط؛ فقد صمم ثوبها وكأنه يتخيلها جنية من الجان، وحاولت لوسيل أن تخفي تثاؤبها، واكتفت بإخراج التثاؤب تلفظه برقةٍ من بين أسنانها؛ فكادت تشبه الأرنبة، وإن لم تمتلئ عيناها بالدموع بعد التثاؤب، وبدا العشاء كأنه لا ينتهي.

وكانت تجلس بين جوني، الذي كان يمسح خديه منذ بدأ العشاء وقد بدا عليه القلق، وبين شاب جميل قيل إنه عشيق ديانا ميريل الجديد، ولم يقلقها الصمت، ولم تحسَّ بأقل رغبة في أن تبهر الأنظار؛ لأنها كانت استيقظت مبكرة جدًا، وحاولت أن تتذكر رائحة هذه الرياح اللعينة فأجفلت لحظة.

وحين فتحت عينيها، التقت بنظرة من ديانا فوجدتها نظرةً قاسيةً شديدة القسوة، واندهشت؛ هل تحب ديانا هذا الفتى إلى درجة الجنون؟ أم إنها تحس بالغيرة فقط؟ ونظرت إليه، كان شعره أشقر في لون الرماد، وكان فَكُّه بارزًا. وكان الشاب يكوِّر بين أصابعه كرة من الخبز، وكان قد كوَّر من قبل عدة كرات حول طبقه.

وتطرق الحديث إلى المسرح، ولذَّ لكلير الحديث؛ لأنه كان يدور حول

مسرحية تعشقها كلير، وتكرهها ديانا. وبذلت لوسيل مجهودًا، وسألت الشاب:

– هل شاهدتَّ هذه المسرحية؟

– لا، أنا لا أذهب مطلقًا إلى المسرح، وأنت؟

– نادرًا...

– آخر مرةٍ ذهبت فيها إلى المسرح لأشاهد مسرحية إنجليزية فكاهيةً في مسرح الأتيلييه، وكانت فيها هذه الممثلة التي قُتلت في حادث سيارة، ما اسمها؟

وقال بصوت خفيض، وهو يمد يده فوق مفرش المائدة:

– سارة.

وظلت لوسيل مندهشة لحظةً أمام تعبير وجهه، وقالت بسرعة في نفسها:

– يا لله. يا له من تعس!

ثم قالت:

– معذرة!

والتفت نحوها، وسألها بصوت حزين:

– ماذا؟

ولم يعد يراها.وكانت تحس به وهو يتنفس إلى جانبها أنفاسًا متقطعة، كأنها أنفاس من تلقى ضربة، وأنها هي التي وجهتها إليه من غير قصد، لكنه لا يستطيع احتمالها.

ولم تكن تحس بالرغبة في التهجم الوقح، ولا في القسوة الوحشية من بابٍ أولى.

– بأي شيء تحلم يا أنطوان؟

كانت في صوت ديانا لسعة غريبة، لهجة فيها شيء من الاستخفاف، ولكن أنطوان لزم الصمت، لم يجِب، كأنه لا يرى ولا يسمع.

وقالت كلير ضاحكة:

– أؤكد أنه يحلم. أنطوان، أنطوان..

لا إجابة. صمتٌ مطبق.

نظر المدعوُّون، والشوك أمامهم لا يتحرك، إلى هذا الشاب الباهت الذي يمسك بدورق ماء –دون اهتمام– وسط المائدة.

ووضعت لوسيل فجأةً يدها على كم قميصه، فاستيقظ قائلًا:

– ماذا تقولون؟

وقالت ديانا بصوت جاف:

– كنت أقول إنك تحلم، وكنا نتساءلُ بأي شيء تحلم، أم إن هذا سر؟

وأجاب شارل:

– هذا سر.

ونظر شارل إلى أنطوان بعناية، كما رمقه الجميع بنظراتهم.

لقد ظنوا أول الأمر حين استقبلوه أنه آخر عشاق ديانا، أو أنه العاشق

الذي تنفق عليه أموالها؛ فإذا بهم يرونه فجأة شابًا حالمًا.

وهب نسيم الحسد والحنين على المائدة..

وهبت نسمة من الرغبة والانتقام في جمجمة كلير..

قبل كل شيء، إن هذا العشاء أقيم للنخبة الممتازة، للأذكياء والشواذ الذين يعرفون كل شيء؛ فإذا كان هذا الشاب يحلم بعشاء مع فتاة صغيرة من فتيات الحي اللاتيني، في مقهىً متواضع، فلا عليه إلا أن يترك ديانا، وهي أكثر نساء باريس المرموقات الفاتنات..

إنها تحمل سنواتها الخمس والأربعين كأجمل ما تحمل المرأة عمرها، ولكنها هذا المساء، بالذات، كانت باهتة اللون، وكان يمكن لكلير أن تظن أنها تعسة، لو أنها لم تكن تعرفها جيدًا،

وانطلقت كلير قائلةً:

– أراهن أنك تحلم بسيارة فيراري؟

لقد اشترى كارلوس آخر طراز من السيارة، وقد جعلني أجربها ذات يوم، وأحسست أن ساعتي الأخير قد حانت.

وأضافت وهي مندهشة:

– ولكنه يقود بمهارة فائقة.

لأن كارلوس وريث أكبر العروش، وقد أحست كلير بالرضا، لأن كارلوس وجد أخيرًا في سيارات السابق شيئًا يشغَله، بدلًا من الانتظار في قاعة فندق "كريون".. انتظارَ عودة الملكية.

والتفت أنطوان إلى لوسيل وابتسم لها.

كانت عيناه عسليتين فاتحتين صفراوين تقريبًا، أنفه حادٌّ، فمه طويلٌ جميلٌ، فيه شيء من الفحولة يتناقض مع هذا اللون الباهت وهذا الشعر الرقيق المراهق.

قال بصوت خفيض:

– معذرةً، لعلكِ تجدينني وقحًا.

ونظر إليها في عينيها، لم يلقِ بنظره مسترخيًا على المائدة أو على كتفيها، كما هي العادة كأنه أراد أن يختص بها دون الجالسين.

وقالت لوسيل:

– في ثلاثِ جمل، تبادلنا اعتذارين.

وقال مبتهجًا:

– لأننا نبدأ من الختام.

كل رجل وامرأة يتبادلان الاعتذار في النهاية..

"آسف، لم أعد أحبُّك"..

– إن هذا الأسلوب في غاية الرقة.

إن ما يثيرني حقًا هو الأسلوب النبيل: "معذرة، كنت أظن أنني أحببتك، لكنني أخطأت، وأحس أن من واجبي أن أصدقك القول"..

وسألها أنطوان:

– ألم يحدث لك هذا مرارًا؟

– أشكرك ألفَ مرة.

– أريد أن أقول لا شك أنك لا تجعلين الرجال يقولون لك ذلك، إنكِ تحملين حقائبك في التاكسي قبل هذه المرحلة.

وقالت لوسيل ضاحكةً:

– وخاصةً أن حقائبي لا تزيد على بلوفرين من الصوف وفرشاةِ أسنان.

وتوقف أنطوان لحظةً:

– ياه! لقد ظننتكِ عشيقة بلاسان لينير.

ولمعت فكرةٌ سريعةٌ في ذهنها: "يا للأسف، لقد كنت أظنه ذكيًا" ولم يعد أمامها سبيلٌ ممكنٌ للتعايش بين الذكاء والشقاوة الفطرية.

فقالت بصوتٍ هادئ:

– هذا صحيح، أنت على حق، لو أنني هجرته الآن، سأمشي في سيارتي المليئة بالفساتين، إن شارل كريم جدًا.

وأخفض أنطوان عينيه:

– معذرةً، إني لا أطيق هذا العشاء، ولا أحب هذا الوسط.

– لا تجيء مرة ثانية، ثم إن هذا خطرٌ على من في مثل سنك.

وقال أنطوان وقد غضب بسرعة:

– أتعرفين يا صغيرتي أنني أكبركِ في السن.

وانفجرت ضاحكةً،

والتفتت ديانا، والتفت شارل إليها،

ولقد وضعا في نهاية المائدة، جنبًا إلى جنب، كل واحدة منهما في مواجهة من يحميها!

كأن الآباء في ناحية، والأبناء في الناحية الأخرى.

طفلان عجوزان في الثلاثين يرفضان الكبر.

وتوقفت لوسيل عن الضحك.

إنها لا تفعل شيئًا، ولا تحب أحدًا.. أيُّ حياة.. لو أنها لم تكن سعيدةً بمجرد وجودها في الحياة، إذن لانتحرت.

وضحك أنطوان.وأحست ديانا بالعذاب.

لقد رأته ينطلق في الضحك مع امرأة أخرى، وهو لا يضحك معها، لعلها كانت تفضل أن يقبل لوسيل أيضًا، إن هذه الضحكة مرعبة، وهذا التظاهر بالشباب المفاجئ أيضًا.

علام يضحكان؟!

ونظرت إلى شارل، ولكن الحنان كان يبدو عليه، بل لقد أصبح غبيًا منذ عامين.

إن هذه الصغيرة لوسيل فاتنةٌ، ولا بأس بها، ولكنها ليست جميلةً، وليست رائعة الجمال..

وكذلك أنطوان.. لقد عرفت رجالًا أكثر جمالًا منه، وكانوا يعشقونها بجنون.. نعم بجنون..

ولكنها تحب أنطوان...

إنها تحبه، وتريده أن يحبها، ولسوف تُخضِعُه ذاتَ يومٍ، وتضعُه تحت سلطانها.

ولسوف ينسى هذه الممثلة التي ماتت، والتي لم يكن يرى سواها: سارة..

كم مرة سمعت هذا الاسم: سارة.

لقد كان يحدثها عنها في البداية حتى اعترف ذات يوم بأن سارة تخونه، وأن الجميع يعرفون ذلك؛ وقال بصوت محايد: "وأنا كذلك أعرف".

ومنذ ذلك الوقت لم ينطقا باسم سارة، ولكنه كان يتمتم باسمها أحيانا، وهو نائم؛ وقريبًا، قريبًا جدًا، حين يعود إلى نومه، وحين يمد ذراعه على جسمها في الليل، سوف لا ينطق بغير اسمها. وأحست أن عينيها قد امتلأتا بالدموع. وأخذت في السعال، وأخذ شارل يدعك ظهرها بلطف.

إن هذا العشاء لا ينتهي...

وكلير سانتريه أفرطت قليلًا في الشراب، وقد بدأت تتعود على هذا الإفراط تدريجيًا.

كانت تتناقش في الرسم بإيمان يفوق تمامًا ما تعرفه عن الرسم...

وبدا على جوني، وكان مغرما بالرسم، أنه يحس بالعذاب الشديد...

وقالت كلير:

– وحين جاء ذلك الفتى عندي، وهو يحمل هذا الشيء تحت إبطه، وضعت اللوحة في الضوء، وظننت أن نظري أصيب بشيء، فماذا قلت له؟

والتفت الجمع في تعب:

– قلت له: أيها السيد. لقد كنت أظن أن لي عينين تريان؛ ولكنني الآن مخطئة، إنني لا أرى شيئًا في اللوحة على الإطلاق.

ولا شك أنها قامت بحركة عنيفة، لكي تصور الفراغ الذي كان يملأ اللوحة فأصابت يدها كأس النبيذ، فوقعت.

وانتهز الجميع هذه الفرصة السانحة لينهضوا من على المائدة.

وخفضت لوسيل رأسها، وفعل أنطوان مثلها.

كانا يضحكان ضحكًا من القلب.. كأنه ضحك التلاميذ.

الفصل الرابع

من عادة الناس ألا يتحدثوا بالقدر الكافي عن الفضائل، أو عن القوة التي تنطلق من ضحكة مشتركة. وقد ينسون الحب، والصداقة، والرغبة، واليأس؛ لكن ما كان بين أنطوان ولوسيل كان أكثر، كان تلك الضحكة المفاجئة التي يضحكها تلاميذ المدارس؛ على الرغم من أن كلًا منهما مرتبط بمخلوق آخر: يشتهيه، ويخلع ثيابه، ويحميه، وعلى الرغم من أنهما كانا يعلمان أنهما سيلقيان العقاب على ما يفعلان ذات يوم، إلا أنهما استسلما للضحك في ركن الصالون.

ويقضي البروتوكل الباريسي، أنه إذا تصادف جلوس عاشقين منفصلين على المائدة تعلن هدنة قصيرة، حتى يأتي كل عاشق إلى رفيق سريره، ليبادله التعليق، أو بعض الكلمات الغرامية، أو بعض العتاب؛ ولذلك انتظرت ديانا أن يجيئها أنطوان، وخطا شارل نحو لوسيل بضع خطوات، لكن لوسيل بقيت تنظر في عناد إلى النافذة، وقد امتلأت عيناها بالدموع، وحين التقت نظرتها بأنطوان، وهو يقف قريبًا منها غضت نظرها بسرعة، ثم وضعت وجهها في منديلها، وحاولت كلير للحظة واحدة أن تتجاهلها؛ ولكن من الواضح أن الحسد وبعض المرارة سادا الصالون، وأسرعت بالإيماء لجوني، إيماءة معناها:

– قل لهذين الطفلين أن يثوبا إلى رشدهما، وإلا فإنهما لن يُدعيا بعد هذه المرة إلى حفلاتي.

ولكن أنطوان فاجأ هذه الإيماءة، وهو يستند على الجدار..

وتحامل جوني على نفسه متظاهرًا بالابتهاج:

- لوسيل. أناشدك أن تحكي ما حدث؛ إن الفضول يقتلني.

وقالت لوسيل:

- لا شيء. لا شيء سوى ما يلقي الرعب في القلب.

وأعاد أنطوان ما قالته لوسيل:

- المرعب المخيف.

وكان أنطوان رائعًا، عاد إليه الشباب، وارتد إليه بريق السعادة، فأصيب جوني بلون من الرغبة الجامحة. ولكن ديانا اقتربت، كانت غاضبة، وكان الغضب يليق عليها.

رأسها الشهير، وعيناها الخضراوان، وضمورها الشديد، كأنها حصان رائع من خيول المعارك؛ وقالت بلهجة تتراوح بين الشك والتسامح، وإن كان الشك يغلب عليها:

- ماذا وجدتما إذن من الغريب الشاذ؟

وقال أنطوان ببراءة:

- نحن؟.. لا شيء.

وكانت هذه الـ "نحن" التي لم ينطق بها حين كانا يتحدثان معًا عن أي مشروع، أو أي ذكريات، هي التي جعلت ديانا تشتعل غضبًا.

وقالت:

– إذن، دعكما من التصرف بعيدًا عن الأدب. إذا لم تكونا ظريفين، فلا أقل من أن تكونا مهذبين.

لحظة صمت.

ووجدت لوسيل أن من الطبيعي أن تعاتب ديانا عشيقها ولكنها تبالغ حين ترميهما بصيغة الجمع. وقالت:

– لقد فقدت السيطرة على نفسك، إنك لا تستطيعين منعي من الضحك.

وقال أنطوان بتمثيل:

– ولا أنا أيضًا.

وقالت ديانا:

– اعذراني، إنني متعبة، مساء الخير.

وقالت ديانا لشارل التعس الذي كان قد اقترب في هذه اللحظة:

– هل تستطيع اصطحابي؟ إنني أحس بصداع شديد.

وانحنى شارل.

وابتسمت له لوسيل قائلة:

– سألحقك في البيت.

وانصرفت ديانا وشارل. وعلت ضجة من تلك التي تعقب الانفجارات في الحفلات، وأخذ الجميع يتحدثون في موضوع مختلف تمامًا، لمدة ثلاث

دقائق، حتى يعودوا إلى التعليق على الانفجار، وبقيت لوسيل مع أنطوان، أخذت تنظر إليه وهي تفكر، مستندةً إلى البلكون، وكان يدخن في هدوء، وقالت متأسفة:

– لم يكن يحق لي أن أفقد صوابي.

وقال لها: سأصطحبك. قبل أن ينقلب كل شيء إلى دراما.

وسلمت عليهما كلير بيدها، كأنها موافقة.

وكان يحق لهما أن يعودا إلى البيت، ولكنها تعلم جيدًا ماذا يعني أنهما صغيران.

لقد كانا يكوّنان "ثنائيًا" رائعًا.

وكان يمكن أن تقدم لهما العون.. ولكن لا.. هناك شارل بلاسان لينيير.

أين ذكاؤها؟

كانت باريس مظلمة، طرية، مغرية.

وقررا أن يعودا على أقدامهما. وأحسا بالراحة لمجرد اختفاء وجه كلير وراء بابها، وقد بدا عليها كذبًا أنها موافقة، ولكن الراحة انقلبت إلى رغبة سريعة في أن يغادر أحدهما الآخر، أو أن يتعارف أحدهما على الآخر، وبالأصح أن يفعلا شيئًا قويًا ليوقفا ما يحسّان به.

ولم تكن لوسيل تحس بأي رغبة في أن تلعب الدور الذي كان المدعوون يقترحون عليها أن تلعبه حين ودعتهم: دور المرأة الشابة التي تهجر حاميها العجوز لتذهب إلى شاب جميل، لم يدر بخلدها شيء من ذلك؛ فقد قالت

ذات يوم لشارل: "قد أجعلك تعسًا ذات يوم، ولكنني لن أجعلك أضحوكة للناس".

ولهذا ففي المرات التي خانته فيها، لم يشكَّ فيها مطلقًا، وقد كانت هذه الليلة سخيفة غاية السخف؛ فماذا تفعل مع هذا الغريب في الشارع؟ والتفتت إليه؛ فقال لها مبتسمًا:

– لا تنظري هذه النظرة السوداء. هل لكِ أن تشربي كأسًا واحدة؟

لكنهما تناولا عددًا من الأقداح. ودخلا خمسة بارات، وتجنبا الدخول في بارين، لأن أنطوان لم يكن يستطيع الدخول إليهما دون أن يكون بصحبة سارة، وعبرا نهر السين، وأعادا عبوره، وذهبا إلى شارع ريفولي حتى ميدان الكونكورد، ودخلا بار "هاريز"، وخرجا منه، وصعدت نسمة الصبح من جديد، وأخذت لوسيل تتأرجح من رغبة النوم وفعل الويسكي وشدة الانتباه. وقال أنطوان:

– كانت تخونني، المسكينة كانت تظن أنها تستطيع أن تنام مع المخرجين والصحفيين،

كانت تكذب عليَّ دائما وكنت أحتقرها، وكنت أتظاهر بالسخرية، أو بأنني الرجل

الفخور الذي يحكم عليها ويدينها؛ فأي حق يا إلهي جعلها تحبني؟! نعم كانت تحبني.

فأي شيء كانت تستطيع أن تحصل عليه مني؟! في تلك الليلة، ليلة وفاتها، كانت

ترجوني أن أمنعها من أن تسافر إلى دوفيل، ولكنني قلت لها: "اذهبي. ما دمتِ تجدين

في السفر التسلية. ولكن كم كنت أحمق.. ومدعيًا".

ومرا بأحد الكباري، وسألها عن حياتها، وقالت لوسيل:

– لم أفهم شيئًا عن أي شيء، إن حياتي كانت تبدو منطقية حتى هجرت أهلي، أردت

أن أحصل على الليسانس من باريس، ولكنني كنت أحلم؛ فقد كنت أبحث عن

أهل في كل مكان، بين أصدقائي، وأحبائي، وتحملت ألا يكون لي شيء، لا أحمل

همًا، ولا أطمع في المستقبل؛ وهكذا سارت حياتي سهلة، وهذا فظيع؛ لا أعرف

لماذا؟ إن شيئًا في داخلي يتوافق مع الحياة لمجرد أنني أصحو من النوم، ولست

أستطيع أن أغير نفسي، وماذا أستطيع أن أعمل؟ ليست لي موهبة. لا بد لي أن

أحب كما أحببت يا أنطوان. أنطوان، ماذا تفعل مع ديانا؟

وقال أنطوان:

– إنها تحبني. وأنا أحب النحيفات الطويلات مثلها، وقد كانت سارة قصيرة مستديرة،

وكان هذا يجعلني أبكي من الحنان؛ هل تفهمين؟ ثم، لقد كانت تصيبني بالضجر.

كان التعب يبدو عليه؛ لذا ذهبا إلى شارع "وي باك"، ثم دخلا، متفقين، إلى أحد البارات الصغيرة. ونظر كل منهما إلى وجه الآخر، بلا ابتسام ولا قسوة. وكان "الجوك بوكس" يعزف فالسًا قديمًا لشتراوس، وكان أحد السكارى يرقص متمايلًا، مترنحًا في نهاية البنك.

وهمس صوت في أعماق لوسيل:

"الوقت متأخر، متأخر جدًا؛ لا بدَّ أن شارل جن من القلق؛ إن هذا الفتى لا يعجبك، وعليك الانصراف".

وفجأة وجدت خدها على جاكتة أنطوان، وضمّها بذراعه إليه، ووضع رأسه فوق شعرها، ولم يتكلم، وأحست بهدوء غريب يهبط عليها.

كان صاحب البار والسكير والموسيقى والأضواء موجودين فعلًا ولعلها هي التي لم تكن موجودة، لم تعد تدري أي شيء، وأوصلها أنطوان بالتاكسي، وودعته بأدب، دون أن يتبادلا أي عنوان.

الفصل الخامس

تبدلت الأوضاع بسرعة، بدأت ديانا بالتغيير، ولم تعد هناك سيدة واحدة تستطيع أن تتخيل دعوة ديانا دون دعوة شارل، وبالتالي، تفكر في دعوة أنطوان دون دعوة لوسيل، وقد غيرت ديانا موقفها؛ فبعد أن كانت في معسكر القساة المعذبين، انتقلت إلى معسكر الشهداء المعذبين، كانت شديدة الغيرة؛ ولم تخفِ غيرتها، وهكذا فشلت، وانتشرت شائعات في الربيع الباريسي. وبمثل هذه التقلبات التي اشتهر بها هذا الوسط في باريس؛ كل شيء كان يحسب لها أصبح الآن يحسب عليها؛ حتى مركزها وقوتها، أصبحا سبب فشلها، وحتى جمالها (الذي لم يكن جمال شبابها)، ومجوهراتها (التي لم تكن تكفيها، ولكن أقل جوهرة من جواهرها كانت تكفي صديقاتها).. وحتى عربة الرولز التي بقيت لها؛ كل شيء كانت تمتاز به أصبح يحسب عليها. مسكينة ديانا؛ لقد انقلب الحسد كما ينقلب القفاز، وتعودت أن تخفي وجهها تحت الأصباغ، وأن تقتل قلبها بالمجوهرات، وأن تصحب صينيًا من بكين في سيارتها.

وأخيرًا، أصبحوا يعيبون عليها كل شيء، بعد أن كانت مناط إعجاب الجميع، وكانت ديانا تعلم كل ذلك، كانت تعرف كل شيء عن باريس، وكان من حسن حظها وهي في الثلاثين، أن تزوجت كاتبًا ذكيًا استطاع أن يكشف لها أسرار هذه الآلة الضخمة قبل أن يهرب؛ وقد أصابه الرعب، وكانت ديانا لا تخلو من الجسارة التي ترجع إلى دماء أيرلندية، وإلى تربية مربية سادية

النزعات، وإلى ثروة خاصة كبيرة أغنتها عن الاعتماد على أي شيء.

إن العداوة تحني الظهر، وخاصة عداوة النساء؛ لكن ديانا التي استطاعت أن تنجو من العواطف الجامحة، ولم تنظر إلى أي رجل إلا في الحدود التي ينظر بها إليها، أصبحت تلاحظ نفسها وهي تراقب خلسة ظهر أنطوان، بدأت تفكر في أسلوب آخر غير العاطفة لتحتفظ به. فماذا يريد؟ إنه لا يحب المال ويتقاضى مبلغًا تافهًا من ناشره، وهو يرفض بصراحة أن يخرجا معًا، إذا لم يكن في جيبه مال، وقد حكم عليهما هذا الوضع أن يتناولا العشاء في البيت وحيدين، حتى بدأت ترفض هذه الفكرة بعد استمرارها ستة شهور.

ولحسن الحظ، كانت هناك حفلات الافتتاح وحفلات العشاء ومثل هذه المتع المجانية التي يمنحونها في باريس لمن يملك كثيرًا من المال؛ وقد قال أنطوان أنه لا يحب غير الكتب، وأنه سينجح ذات يوم في عالم النشر.

والحق أنه لم يكن في تلك السهرات يحس بالحماس إلا إذا وجد أحدًا يحدثه بجدية عن الأدب.

وحدثته ديانا ذات يوم، كعاشقة متحمسة، عن جائزة جونكور ولكنه ادعى أنه لا يجيد الكتابة، فأصرت على أن تقول له:

– إنني على يقين، لو أنك حاولت...

انظر إلى هذا الكاتب..

وصرخ أنطوان، وكان لا يصرخ مطلقًا:

– مستحيل، مستحيل!

سينتهي به الأمر أن يصبح مجرد مراجع للكتب عند رينووار، لا يتقاضى سوى ٢٠٠ ألف فرانك في الشهر، وسيظل يبكي على سارة خلال خمسين عامًا، لكنها رغم ذلك ما زالت تحبه؛ لقد أمضت ليلةً مسهِدةً بعد العشاء: فقد عاد أنطوان في الفجر –مخمورًا طبعًا– إلى بيته، وأخذت تتصل به تليفونيًا كل ساعة لمجرد أن تسمع صوته، ثم تقطع المكالمة..

وفي السادسة والنصف صباحًا، وضع السماعة وهو يقول بصوت طفولي:

_ أنا نائم.

ولم يكلف خاطره أن يسأل عن الذي يحدث، لا بد أنه أخذ يجوب بارات سان جرمان، ولعله كان يصحب لوسيل معه.

لكن عليها ألا تحدثه عن لوسيل. وعليها ألا تذكر الشيء الذي تخاف منه، وفي اليوم التالي، اتصلت بكلير، تعتذر لها عن مغادرتها السهرة فجأة، وادَّعت أنها كانت تحس بصداع شديد.

قالت كلير– مجاملة ومواسية–:

– لقد كان يبدو عليك التعب فعلًا.

وقالت ديانا ببرود:

– لن يعود إليَّ شبابي. وهذا الشابُّ مرهق حقًا.

وكادت كلير تضحك؛ فهي مولعةٌ بالغمزات، ولا أحد يستطيع الحديث

بدقة عن فحولة العشاق سوى امرأة عصرية تحدث امرأةً مثلها، وذكرتا بعض المحامد في صفات أنطوان، وغضبت كلير قليلًا. ولم تتحدث ديانا، فبدأت كلير بالهجوم.

– هذه الصغيرة لوسيل قلقةٌ بضحكاتها المجنونة التي تشبه ضحكات طالبات المدارس الداخلية، ألا تبلغ الثلاثين تقريبًا؟

وقالت ديانا:

– إن عينيها خضراوان جميلتان، ولعل هذا هو ما يسلي عزيزنا شارل.

وتنهدت كلير:

– عامان معها! هذا عمرٌ طويل!

– بالنسبة له أيضًا، يا عزيزتي.

وبهذه الخاتمة، انفجرتا بالضحك وانتهت المكالمة، وظنت ديانا أنها استطاعت تخفيف أثر الحادث؛ ولكن كلير كانت تستطيع أن تقول لنفسها أن ديانا، الشهيرة بالنزوات، قد اتصلت بها في الظهر لمجرد الاعتذار.

ولا شك أن ديانا نسيت هذا المبدأ الأساسي في باريس، بأنه لا ضرورة للاعتذار مطلقًا عن أي شيء تفعله، ما دامت تفعله عن رغبة ورضا.

ودعا جوني، بناء على تعليمات كلير، شارل بلاسان لينير في افتتاحية إحدى المسرحيات، التي دعيت إليها ديانا بالطبع.

واتفقوا على أن يذهبوا بعد المسرح –الأصدقاء فقط– للعشاء في أحد الأماكن.

وكانت كلير تحس فوق المتعة التي ستنعم بها من اجتماع لوسيل بأنطوان، أن شارل سيدفع حتمًا ثمن العشاء؛ فجوني كان مفلسًا تمامًا في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتركوا ديانا تدفع، ولم تتذكر أن عليها أن تدعو رجلًا إضافيًا من الأثرياء، وهو نوع من الرجال أصبح نادرًا في هذا العصر الذي لم يعد يحفل فيه بالدعوات الفاخرة إلا رجال يدعون رجالًا آخرين؛ ومع ذلك فالمسرحية ستكون مسليةً بلا شك؛ لأن مؤلفها بيجو ديبوا.. وديبوا يعرف حرفة المسرح جيدًا.

وقالت كلير لجوني في التاكسي الذي يقلُّهما إلى مسرح الأتيلييه.

– ماذا تريد يا عزيزي؟ إنني لم أعد أطيق مسرحك الحديث؛ حين أرى هؤلاء الممثلين يجلسون في الفوتيات يكررون كلامهم عن الحياة أموت من شدة الضجر، ولا أخفي عليك أنني أفضل عليهم مسرح البولفار؛ هل تسمعني يا جوني؟

وهز جوني رأسه، وكان قد سمع هذه الخطبة للمرة العاشرة منذ افتتاح الموسم المسرحي، لكن كلير كانت فاتنة، غير أن حيويتها كانت تتعبه؛ فأحس فجأة بالرغبة في أن ينزل من السيارة، وأن يسير في شارع كليشي ليتجول بين الخلق ويأكل البطاطس المحمرة في طبق من الورق، وأن يضربه أحد البلطجية، وكانت مؤامرات كلير تبدو له دائمًا ساذجة، وكان يندهش لنجاحها.

وفي ميدان وانكور أخذ المدعوون يدورون في دائرة، ويتصافحون وهم يؤكدون أن هذا المسرح هو أجمل مسارح باريس، وأن الميدان يشبه ميادين الأرياف، وخرجت لوسيل من أحد المقاهي، يحرسها شارل، وجلسا فوق أحد المقاعد الكبيرة يأكلان شطيرةً ضخمةً.

وبعد برهة من التبكيت، جلس آخرون يفعلون مثلهم، ووصلت سيارة ديانا في هدوء، وتوقفت بالصدفة تمامًا إلى جوار المقعد في الشارع، وخرج منها أنطوان، ثم صحب ديانا للخروج، وعاد؛ فرأى لوسيل وفمها ممتلئ، تبدو عليها السعادة، وشارل ينهض ليحيي ديانا التي نظرت بسرعة فلمحت أوميه دي جيلت ودودو ويلسون ومدام بيرت، وقد جلسوا مثلهم فوق مقاعد الشارع.

– الساعة الآن التاسعة، ولن يبدؤوا قبل ربع ساعة، أنطوان، لتكن رقيقا، واجرِ إلى المقهى، إنني ميتة من الجوع.

وتردد أنطوان قليلًا ورأته لوسيل ينظر إلى المقهى، ثم إلى ديانا، ثم يحرك ذراعيه مستسلمًا للقدر، ويعبر الشارع، ودفع باب المقهى.

وفجأةً رأى صاحب المطعم يدور من خلف البنك، ثم يصافح أنطوان، وقد بدت عليه الدهشة، وجاء النادل بدوره، ولم تعد ترى غير ظهر أنطوان، وبدا كأنه يتراجع ويترنح، وكأنه يتلقى عدة ضربات، وتذكرت فجأة: سارة، نفس المسرح، والبروفات، والمقهى الذي كان ينتظرها فيه، والتي لم يعد إليها مطلقا.

وقالت ديانا:

– ولكن ماذا يفعل أنطوان؟ هل يسكر بمفرده؟

وعادت ورأت أنطوان الذي يحاول الخروج من الباب، مرتدًا على عقبيه وكأنه يعتذر عن عدم مجيئه بالشطائر، وظهرت صاحبة المحل أيضًا، وهزت رأسها، وأمسكت بيد أنطوان، ولا بد أنه كان يعابثها في الأيام الخوالي وهو ينتظر سارة؛ لا شك أن حياته كانت تغمرها السعادة، أثناء البروفات؛ فالمقهى لا يبعد كثيرًا عن المسرح.

وقالت ديانا: ماذا دهاه؟

وقالت لوسيل دون أن تنظر إليها: سارة!

وأحرجها الاسم..

لكن ينبغي الصمت وعدم سؤال أنطوان عن أي شيء..

ووصل إليهم، ووجهه أملس كوجه أعمى..

وفهمت ديانا فجأة، واتجهت إلى لوسيل التي تراجعت خطوة، وكأنها أحست أن ديانا تريد أن تلطمها.

إذن هذه الفتاة تعرف هذه القصة أيضًا.

ليس هذا من حقها، إن أنطوان يخصها، ضحكاته وأحزانه معًا.

لقد كان يحلم بسارة، في الليل من فوق كتفها، وهي وحدها التي يحق لها أن تذكِّره بسارة،

وضربت أجراس المسرح؛ فأمسكت بذراع أنطوان، وسحبته وترك أنطوان نفسه غائبًا وحيًا في أدب بعض النقاد وبعض أصدقاء ديانا، وساعدها على الجلوس، وسمعت ضربات المسرح الثلاث، وفي الظلام، مالت عليه لتقول:

– عزيزي المعذب..

وأمسكت بيده، فتركها لها.

الفصل السادس

في وقت الاستراحة، انقسم الفريق إلى مجموعتين، وتبادل لوسيل وأنطوان الابتسام من على بعد، ولأول مرة زاد إعجابهما المتبادل، ونظر إليها وهي تتحدث وقد استندت على كتف شارل القوي، واجتذبته انحناءة فمها الساخرة قليلًا واستدارة رقبتها؛ فأحس بالرغبة في أن يخترق الزحام ليقبِّلها؛ لقد مضى وقت طويل لم يحس فيه بالرغبة –من على بعد– في امرأة مجهولة.

والتفتت لوسيل في هذه اللحظة، والتقت بنظرة أنطوان، فتجمدت في مكانها؛ لأنها تعرفت على معنى نظرته، ثم حيته بابتسامة مرحبة، إنها لم تفكر مطلقًا في جمال أنطوان، وكان لا بد من أن يرغبها ويشتاق إليها، حتى يتجلى له جمالها؛ لقد ظلت طوال حياتها هكذا، لا تهتم لمجرد صدفة سعيدة، أو لمجرد الخوف الذي يكاد يكون مرضًا من مصادفة العقبات فأصبحت لا تهتم إلا بالمخلوقات التي تبدي اهتمامًا بها.

والآن، وقد أدارت له ظهرها أصبحت ترى فمه الجميل، ولون عينيه الذهبي، وتساءلت في نفسها أي مبالغة جعلتها لا تقبِّله في ذلك المساء الذي صحبها فيه، وأحس شارل بها وهي تبتعد عن كتفه فنظر إليها، ولاحظ عليها هيئة التفكير المليئة بالعذوبة والتي لا تخلو من الاستسلام، والتي تبدو عليها إذا رأت أحدًا يعجبها؛ فالتفت شارل ليرى أنطوان.

وعند انتهاء المسرحية، عادت الشلة، وجُنَّت كلير بالمسرحية، وجُنَّت من مجوهرات مهراني هندية، وجنت من لطافة الطقس، فأخذت تهذي من الإعجاب

بكل شيء، ولم يتفقوا على انتقاء مطعم؛ وأخيرًا، اتفقوا على الذهاب إلى "مارن" لأن كلير يسعدها العشاء في نسمة الليل وعلى الحشائش الخضراء.

وكان سائق ديانا ينتظر، فاقترب شارل فجأة نحوها:

– ديانا، أرجوكِ أن تصحبيني معك، لقد أتينا في عربة لوسيل، وأحس أنني أصبحت الليلة عجوزًا، ومزكومًا، ائتمنيها على أنطوان.

ولم تتحرك ديانا، ولكنها سحبت عليه نظراتها المندهشة، والتي لم تعد تفهم شيئًا.

وقالت ديانا:

– بكل تأكيد، إلى اللقاء يا أنطوان.

لا تقُد بسرعة كبيرة.

وركب أربعتهم في الرولز. ووقفت لوسيل وأنطوان على الرصيف مندهشين ولم يلتفت إليهما شارل، ولا ديانا، وغمزت لهما كلير بعينها، فتجمدا وتظاهرا بأنهما لم يلحظاها.

كانت لوسيل تفكر؛ فمن طبيعة شارل أنه يحب تعذيب نفسه، ولكن كيف أحس بهذه الرغبة التي اعترتها منذ ساعة ولم تستطع تحديدها؟

يا له من ضجر، إنها لم تخن شارل إلا مع صبية تعرف أنها لن تقابلهم من جديد، وإذا كان هناك شيء تحتقره، فهو اتفاق عاشقين من وراء شخص ثالث، أو تلك الضحكات المتسلية التي يطلقها شهود هذا الموقف.. كما ضحكت كلير الآن.

إنها لا تريد أن تصل إلى هذا الحد.

ووضع أنطوان يده على كتفها، فهزت رأسها، على أي حال، فالحياة ناعمة والجو صحو، وهذا الصبي يعجبها.

إن عدد المرات التي قالت فيها لنفسها: "سنرى ما يحدث فيما بعد" كثير جدًا في تلك السنوات الثلاثين التي أمضتها من العمر.

أخذت في الضحك..

وسألها أنطوان: لماذا تضحكين؟

– أضحك من نفسي، العربة هناك، أين وضعت المفاتيح؟

– هل تقود أنت؟

وقاد أنطوان السيارة، ولم يتحدث.ظلا يتنسمان هواء الليل في عربتها المفتوحة وهما مضطربان.

وكان أنطوان يسير بهدوء، وفي ميدان "لتوال" التفت إليها:

– لماذا فعل شارل هكذا؟

وأدركا على الفور بهاتين الكلمتين وبتبادل هذه النظرة المضيئة أثناء الاستراحة، أنهما ارتبطا بشيء لا يمكن الرجوع فيه.

كان يمكن أن تقول مثلًا: ماذا.. هذا؟ وبهذا السؤال تفسر تصرف شارل على أنه قرار رجل عاقل مزكوم.

لكن انتهى الأمر، لم تعد تحس بأدنى رغبة سوى في الوصول إلى المطعم

بأسرع ما يمكن، أو أن يتخبط أنطوان في قيادته، أو أن يخطر له أي خاطر دنيء، فتستطيع التخلص منه على الفور.

لكن أنطوان لم يقل شيئًا، وعبرا الغابة، وسارا في محاذاة السين، وكانا يبدوان كعاشقين من عشاق الشباب الذهبي في هذه الكابريوليه العالية الصوت، كأنها وريثة ديبون صاحب مصانع النسيج، وهو وريث ديبوا صاحب مصانع السكر، وكأنهما سيتزوجان في خلال ثمانية أيام في "شايو"، وقد باركتهما العائلتان، وسينجبان طفلين كذلك.

وقال أنطوان وهو ينحرف نحو "مارن":

– ما زال هناك كوبري.

ما عدد الكباري التي عبرناها معًا؟

وكان هذا أول تلميح في أمسيتهما، وتذكرت لوسيل فجأةً أنها ظلت مختبئةً في جاكتته، وهما في ذلك المقهى الصغير، لقد نسيت تمامًا، فاضطربت.

– هذا صحيح.. نعم.. فعلًا.

وهزت يدها، وأمسكت يد أنطوان بيدها وهي طائرة.

أمسكها برفق وأبقاها، وفكرت لوسيل: "ماذا؟ إنه يمسك بيدي لنعبر الغابة..

إنه الربيع.. ولا شيء يدعو إلى الجنون.. ولم أعد في السادسة عشرة..

ولكن قلبها نبض بعنف، وهيئ لها أن دمها ينفض من وجهها ويديها، ويحتبس في حلقها ويخنقها.

وحين أوقف السيارة، لم تعد تستطيع التفكير بوضوح.

أمسكها بين ذراعيه، وقبلها بخشونة، ولاحظت أنه يرتجف كما ترتجف، ونهض، ونظر إليها، فأسلمت له نظرها.

ولم تتحرك حتى عاد إليها. فقبلها ببطءٍ، وجدية، وأخذ يقبل جفنيها وخدها، وعاد إلى فمها، ونظر إلى وجهها الهادئ، المتنبه من تحت كتفه.

فأدركت أنه سوف يراها هكذا مرات أخرى.

إنها لن تستطيع معه شيئًا.

كانت قد نسيت أنه يمكن اشتهاء أحد إلى مثل هذا الحد..

كان لابد لها أن تحلم..

كم من الوقت؟ عامان؟ ثلاثة أعوام؟!

ولكنها لن تستطيع تذكر أي وجه آخر غير وجهه..

وقال صوت أنطوان المضطرب:

ماذا يحدث لي؟! ماذا يحدث لي؟!

وابتسمت، وأحس أنطوان بخد لوسيل يلامس خده؛ فابتسم أيضًا..

وقالت بصوت خفيض: يجب أن نعود..

وقال أنطوان: لا، لا.

وبعد برهة، ابتعد عنها، وفاق عذابهما كل حد..

وسار أنطوان بسرعة، وأصلحت لوسيل ماكياجها في محطة.

كان الرولز قد وصلت قبلهما، وأدركا أنه كان من الممكن أن تمر الرولز على سيارتهما، أو أن تفاجئهما بضوئها الذي يشبه طائرين من طيور الليل.

لكنها كانت تتربع هناك في الميدان الصغير، رمزا للجاه والرفاهية، والكابريوليه الصغيرة مركونة جوارها تبدو صغيرةً هشة.

وأخذت لوسيل تمسح "المكياج" من فوق وجهها، وكانت تحس بالإرهاق الشديد، وهي تنظر إلى الخطوط الصغيرة التي بدت واضحة إلى جوار جفنيها، وتمتد على حافة ثغرها.

تساءلت في نفسها: "ماذا تعني تلك الخطوط؟! من أين أتت؟ ومن؟ وما سبب ظهورها؟" لم تكن هذه الخطوط –بالتأكيد– ثمرة العاطفة المتوهجة، ولا خطوط المجهد، لا شك أنها علامة الرفاهية واللامبالاة والاستهتار.

وفي لحظة، تراءى لها رعب فظيع، ومرت بيدها على جبهتها، كما اعتادت مرارًا منذ عام تقريبًا، كلما أحست بالقرف من نفسها.

لابد أن تذهب إلى طبيبها، فربما أصابها مرض، وربما كانت تحتاج إلى مزيدٍ من أقراص الفيتامين، وقد تستمر على ذلك؛ فتفقد عمرها (أو تحلم بها) بمنتهى البهجة.

وسمعت نفسها وهي تصرخ لنفسها غاضبة كأنها تحدث شارل:

– شارل، لماذا تركتني أذهب مع أنطوان؟

كانت تعلم في نفس الوقت أنها تبحث عن شيء ينفجر، عن دراما، عن أي شيء يختلف عن هذا القرف الهادئ.

إن شارل سوف يدفع الثمن، وشارل هو الذي يتعذب.

إذا كانت لا تحب غير المتناقضات، فهذا شيء، أما أن تجعل الآخرين يتحملون نتائج ذلك، فهذا شيء آخر، على أي حال يكفي أنها نطقت بكلامها.

ولم تدرك، للوهلة الأولى، أنها نطقت بسؤالها بصوتٍ عالٍ حتى أن شارل سمعها وهو يخلع ملابسه في هدوء في غرفته الخاصة، وفكر لحظة، إذ كان من شدة التعب، يمضغ سؤالها، ثم قال:

– لقد كنت "مزكومًا".

ولم تتشبث بالسؤال، إن البحث عن الحقيقة، وهذه اللحظات التي تمر به تؤدي به إلى لا شيء.

ولكن رغبة جامحة اجتاحته ليعرف، ليتعذب، فقد اعتاد من زمن طويل –أي منذ عشرين عامًا– على فقدان الإحساس بالأمن بالضبط، كما اعتاد أن يتجاهل بمهارة مغامرات عشيقاته.

قال لها:

– كنت أظن أن هذا ينال رضاك.

ولم يلتفت، واستمر ينظر إلى المرآة، واندهش لأنه بدا سليمًا معافىً لم يتغير لون وجهه.

– هل قررت أن تلقي بي في أحضان أي رجل يعجبني؟

– لا تحاسبيني أنا، إن هذا الحساب نذير بشيء.

وكانت قد عبرت الغرفة قبل أن يكمل كلامه، واتجهت نحوه، وأحاطت رقبته بذراعيها، وهي تهمس باعتذارات لم يتبين ألفاظها، ولم ير في المرآة فوق كتفها سوى شعرها الغامق وفكها الطويل يستند على كتفه، وأحس بوخز في قلبه، لقد عاوده الألم، نفس الألم.

– "هذا بالضبط ما أحبه، هذا بالضبط ما لا أستحقه، سوف تهجرني"، كيف يمكن في مثل هذه اللحظة بالذات، أن يحس الإنسان أنه يحب شعرًا آخر غير هذا الشعر، ومخلوقةً أخرى غير هذه المخلوقة.

ولكن لا يغذي الحب ويقويه سوى الإحساس بأنه شيء لا حيلة لنا فيه.

وقالت لوسيل:

– لم أرد أن أقول ذلك بالضبط، ولكنني لا أحب..

وقال شارل، وهو يعود إليها:

– إنك لا تحبين على سبيل المجاملة، ولكن تأكدي أنني لست من ذلك النوع، إنما أردت أن أتأكد من شيء أريد التحقق منه وهذا كل شيء.

– من أي شيء تحققت؟

– من هيئتك وأنت تدخلين المطعم، وطريقتك في تجنب النظر إليه، إنني أعرفك، إنه يعجبك.

وابتعدت لوسيل عنه، وقالت:

– ثم ماذا؟ ألا يمكن أن يعجب بأحد دون أن يسبب للآخرين الآلام؟ ألا يمكنني أن أعرف الاستقرار ذات يوم؟ وما نوع هذه القوانين التي تطبقها؟ وماذا تعني الحرية؟ في.. في..

وتلعثمت، وتعثرت كلماتها، وأحست أن أحدًا لا يفهمها..

وابتسم شارل ليقول:

– أنا لم أفعل شيئًا في حريتي، أنتِ تعلمين تمامًا أنني متيم بك؛ أما بالنسبة لحريتك أنت، فيبدو لي أنك معجبة بأنطوان، هذا كل ما في الأمر، ولست أدري إذا كان هذا الإعجاب سيؤدي بعد ذلك إلى خطوة ما، لست أدري، ولا أستطيع عليكِ شيئًا!

وتمدد شارل على السرير، وهو في روبه، وتسمرت لوسيل واقفة، فنهض على حافة السرير.

وقالت لوسيل شبه حالمة:

– هذا حق، إنه يعجبني.

وتبادلا النظرات.

وقالت لوسيل بسرعة:

– لو حدث ذلك، فسوف تتعذب.

وأجاب شارل:

– نعم، لماذا؟

– لأنني لولا ذلك لهجرتك. ونامت نصف نومة على السرير وهي تسند رأسها بيدها، وقد قربت ركبتها من ذقنها، وكشفت وجهها، وبعد دقيقتين، كانت تنام وقاسى شارل بلاسان لينبير من مقاسمتها الغطاء بعدالة.

الفصل السابع

في الصباح التالي حصلت لوسيل على رقم تليفون أنطوان من جوني، وفي الرابعة عصرًا التقيا في غرفته في شارع دي بواتييه، في أول الأمر، لم تر سوى أنطوان الذي احتضنها دون كلام، ودون أن يرحب بها بكلمة واحدة، وكأنه لم يتركها منذ كانا في حديقة سان كلو، حدث لهما ما يحدث لكل رجل وامرأة يرتبطان بالحريق؛ سرعان ما ينسيان أنهما كانا من قبل يعلمان شيئًا عن المتعة، وينسيان حدود جسديهما، ويصبح تعبير الخجل والجرأة مجرد تعبيرين مجردين؛ فمجرد التفكير في أنهما سوف يفترقان بعد ساعة أو ساعتين كان يبدو فكرةً غير أخلاقية تستحق الاحتجاج، وأصبحا على يقين من أن أي حركة يأتيها أحدهما لم تعد تضايق الآخر، وكانا يتمتمان بكلمات فجة مضطربة.. كلمات الحب الجسدي والكبرياء، والامتنان للّذة الممنوحة والمقبولة التي تلقي بكل منهما في أحضان الآخر.

وكانا يعلمان أن هذه اللحظة استثنائية، وأن لا شيء يعادل أن يمنح الإنسان فرصة اكتشاف من يكمله، وهكذا، أصبحت العاطفة الجسدية على غير ما توقعا، وما كان يمكن أن يجعل العلاقة بينهما علاقة عابرة أصبح يرسم لهما قصة حقيقية، وأظلمت السماء، ورفضا أن ينظرا إلى الساعة، وأخذا يدخنان ورأساهما مائلان، وبقيت عليهما رائحة الحب والاختلاط والتنفس، كأنهما مقاتلان أتعبهما القتال والنصر.

كانت الملاءات تحملق فيهما، ويد أنطوان على رجل لوسيل التي قالت:

– لا أستطيع لقاءك دون أن أحس بالخجل، ولا أستطيع رؤيتك تغادرني دون أن أحس بالألم، ولن أستطيع التحدث معك أمام حاضرين دون أن أرخي عيوني.

ووضعت رأسها فوق ذراعها، ونظرت إلى النافذة الضيقة، ووضع أنطوان يده على كتفها، كان ظهرها مستقيمًا وناعمًا، وأحس أن عشر سنوات تفصله عن ديانا.. بل الحياة كلها، وقبض يده في اللحظة التي تحولت فيها إليه، وأمسكها من تحت وجهها بما يشبه القسوة؛ فالتصق فم لوسيل ببطن يده، وأمسكت أصابعه بوجهها، وكأنهما كانا يقسمان بأن يقضيا آلاف الساعات المماثلة.. دون أن ينطقا بكلمة واحدة.

الفصل الثامن

ووضع جوني كأسًا في يد أنطوان، الذي كان يبتسم بطريقة آلية دون أن يسقط نظره عن الباب، وقال له:

– لا تكشِّرْ هكذا يا عزيزي، وكأنك تشهد فيلمًا مرعبًا.

لقد مرت ساعة، وأوشكت الساعة أن تقترب من التاسعة ولم تحضر لوسيل.. ماذا حدث؟ لقد وعدته بالحضور، إنه يتذكر صوتها وهي تقول على عتبة باب غرفته: "غدًا، غدًا".. إنه لم يرها منذ ذلك الحين، لعلها كانت تسخر منه، إنها تعيش تحت رعاية بلاسان لينير، وهي تستطيع أن تجد شبابًا مثله في كل مكان، لعله كان يحلم ببعد الظهر، البارحة، التي اختلط فيها السواد والحمرة، بينما لم تكن ترغب في شيء سوى تمضية الوقت مع شاب كما تفعل الأخريات، ولعله أيضًا سخيفٌ ومدَّعٍ.

دفعت إليه ديانا بالمضيف، صاحب الدعوة، وإذا به أمريكيٌّ مجنون بالأدب، وقالت بلهجة قاطعة:

– ويليام، إنك تعرف أنطوان، (وكأن أحدا لا يستطيع اكتشاف أنه عشيقها).

قال ويليام، وهو يبتسم ابتسامة تقدير:

– بالطبع.

وكاد أنطوان ينفجر من الغيظ، وكأنه يقول لنفسه:

– لعل هذا الأمريكي سوف يرفع شفتي العليا، ليرى أسناني.

وقالت ديانا:

– ويليام يحكي لي أشياءَ مدهشةً عن سكوت فتزجرالد.

لقد كان صديقًا لوالده، إن أنطوان يعشق فتزجرالد، لابد أن تحكي له كل ما عندك.. كل شيء.. وضاعت بقية الجملة، لم يسمعها أنطوان، لأن لوسيل دخلت، وجالت عيناها في الصالون، كان يبدو عليها أنها قبل مجيئها، منذ خمس دقائق، كانت تحس مثله تمامًا بنفس الإحساس بالفزع. ورأته، فوقفت دون وعي، ثم تقدم خطوة منها، وأحس أنطوان بشيءٍ من الدوار:

"سوف أتقدم نحوها، وآخذها بين ذراعيَّ، وأقبلها في فمها، وليذهب الجميع إلى الجحيم".

وأحست لوسيل بقراره، وفي ثانية كان يمكن أن تتركه يفعل ما يريد، لقد طال الليل وطال النهار، وطال تأخر أنطوان، حتى إنها خشيت طوال ساعتين أن تصل متأخرةً إلى الحفلة، وظلَّا وجهًا لوجه كما كانا في المحطة، وفجأة استدارت بحركة عنيفة، حركة فيها معنى العجز واليأس، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك، وحاولت أن تقول لنفسها أنها لا تفعل ذلك إنقاذا لشارل، ولكنها أدركت أن السبب هو الخوف.

وكان جوني إلى جوارها، يرمقها في هدوء وإشفاق باسمًا؛ فردت إليه الابتسامة، وتقدم إليها، وأخذها من ذراعها، وسحبها إلى البوفيه.. وقال جوني:

– لقد أُخِفتِ!

– لماذا؟

ونظرت إليه في العينين، من المستحيل أن تبدأ القصة، ليس هكذا مبكرًا، "فيظهر الشركاء، والأصدقاء، والذين يعرفون الأسرار، والذين تحطمهم الغيرة"، مستحيل!

وهز جوني كتفيه، وقال برقة:

– إنني أحبك وأنتِ تسخرين، ولكنني أحبكِ جدًا.

وهزها شيءٌ ما في صوته، فنظرت إليه، لا شك أنه وحيدٌ جدًا.

– ولماذا أسخر منك؟

– لأنكِ لا تهتمين إلا بما يروق لكِ، وما عدا هذا يضايقك، أليس كذلك؟ على أي حال، فليست مجموعتنا رديئةً، وسيسمح لك ذلك بأن تبقي مدة طويلة لا يقلقك أحد.

كانت تسمعه دون وعي..

فقد اختفى أنطوان وراء رءوس المدعوين في نهاية الصالون..

"أين أنت؟ أين أنت أيها الأحمق؟ يا عاشق، يا أنطوان. أين أخفيت جسدك النحيل؟ وماذا تجديك عيناك الذهبيتان إذا لم ترياني هناك على مسافة لا تزيد عن عشرة أمتار يا أحمق؟ يا أحمقي العزيز".

واجتاحتها نوبة من الحنان.. ماذا يقول جوني؟ إنها بكل تأكيد لا تحب

إلا ما يرضيها، وما يرضيها هو أنطوان، وكان يبدو أنه منذ سنوات، ولأول مرة أمسك بدليل على ذلك، وأخذ جوني ينظر إلى هذا الدليل بمزيج من الحزن والحسد، صحيحٌ أنه يحب لوسيل جدًا، ويحب طريقتها في الصمت والملل والضحك.

والآن أخذ ينظر إلى هذا الوجه الجديد الشاب الطفولي الذي يكاد يكون بدائيًا من شدة الرغبة، وتذكر أنه منذ وقت بعيد كان يحس بالرغبة كذلك في شخص يفضل العالم أجمع، إنه روجيه، نعم، لقد كان يرى روجيه هكذا، وهو في الصالونات كان يحس أنه توقف عن الحياة، وأن الحياة تعود إليه، أين كانت الحياة؟ وأين كان الحلم في هذه القصص الغرامية؟ على أي حال فإن هذا الأنطوان الصغير لم يضع وقته؛ لأنه لم يطلب منه رقم تليفون لوسيل إلا منذ يوم واحد فقط، لقد طلب منه الرقم بهدوء رجلًا لرجل.

والغريب أن ينعقد بين لوسيل وجوني نوع من المشاركة؛ لأن جوني لم يفكر مطلقًا في إفشاء هذا السر وإخبار كلير بقصة التليفون، هناك أشياء صغيرة لا يفعلها جوني، والله يعلم رغم ذلك كم إن الحياة عزيزة، ولم تلحظ ديانا حركة أنطوان؛ لأن فستانها لحسن الحظ اشتبك بطرف المائدة في نفس اللحظة التي دخلت فيها، واندهش ويليام من هذا الشاب الذي لم يكد ينطق له باسم سكوت فتزجرالد حتى هرب من أمامه، وتسرب أنطوان سريعًا من الجمع، ليساعد ديانا على فك فستانها ولم يخل الأمر من سقوط بعض التوتر، وصاحت ديانا بما يشبه الهمس:

– يداك ترتعشان.

وكانت ديانا تحدثه بصيغة الجمع في الحفلات، لمجرد أنها تريد أن تكلمه في بعض الأحيان بصيغة المفرد، متظاهرةً بأنها مجرد صدفة، لكن أنطوان لاحظ أنها أكثرت من محادثته بصيغة المفرد أكثر من مرة، وضاق بها، وزاد ضيقه منها منذ يومين بالذات، لقد أصبح ينعي عليها نومها وصوتها، وأناقتها وحركاتها؛ بل وينعي وجودها بنفسه، وينعي أنها لم تعد بالنسبة له إلا وسيلة لدخول الصالونات التي تظهر فيها لوسيل حتى يراها، وضاق بنفسه، ونعى عليها أيضًا أنه لم يعد يستطيع أن يلمس ديانا بيديه، واضطربت ديانا لذلك، لقد كان منتظمًا معها في مزيج من الشهوة العارمة وعدم الاكتراث، ولم يكن يعرف أن هذا الخلل كان يحرك في نفس ديانا بعض الأمل، بقدر ما تخاف ذلك العاشق المنتظم الصامت البعيد عن الخيال.

فالعشق يتغذى على كل شيء، حتى على ما يعارض رغباتها.

وتلفت أنطوان يبحث عن ديانا بعينيه، كان يعلم أنها هناك، وأخذ ينظر بخوف إلى الباب، وهو يخشى أن تغادر المكان، دون أن يراها ثانية، وأفاق على صوت شارل، فتحول إليه، وسلم بيده على لوسيل التي كانت تبتسم؛ فتملكه إحساس بالنصر والسعادة الغامرة، إحساس كان يتملكه تمامًا؛ فلم يتمالك من فرط الانفعال إلا أن يسعل ليخفي تعبيرات وجهه.

وقال بلاسان لينير:

– ديانا، هذا هو ويليام الذي يملك سيارة بلونديني التي حدثتكِ عنها منذ أيام، ويليام، لابد أن تريها إياها.

وفي لحظة، تقابلت نظرة أنطوان بنظرة شارل قبل أن يبتعد وخلفه ويليام

وديانا، كانت النظرة زرقاء قلقة، تحمل كل معاني الأمانة؛ فهل يعاني من شيء؟ هل يشك في شيء؟ لم يطرح أنطوان بعد هذا السؤال على نفسه، إنه لم ينتبه من قبل إلا إلى ديانا، ولم يعبأ بها إلا قليلًا؛ فمنذ موت سارة لم يطرح على نفسه أي سؤال حول أي شخص، وهو الآن يجد نفسه وحيدًا، وجهًا لوجهٍ أمام لوسيل، يسألها في صمت: "من أنتِ؟ ماذا تريدين مني؟ ماذا تفعلين هنا؟ ماذا أكون لك؟"

قالت لوسيل:

– "ظننت أنني لن أصل أبدًا".

وخطر لها في نفسها: "إنني لا أعرف عنه شيئًا، لا شيء سوى طريقة مطارحتي الغرام؛ فلماذا كل هذا الوجد والاشتعال؟ لعل هذا يرجع إلى خطأ الآخرين، لو أننا كنا أحرارًا، لا يراقبنا أحد، لكنا أكثر هدوءًا، وأقل اشتعالًا"، وأحست للحظة بالرغبة في أن تدير ظهرها له، وأن تذهب لتنضم للشلة التي تتحدث عن سيارة البلونديني.

أي مستقبل ينتظرها من الأكاذيب والتسرع؟ أخذت السيجارة التي قدمها لها أنطوان، ووضعت يدها على يده التي تقدم لها عود الثقاب، أحست بالدفء وملمس يده؛ فأخفضت جفنيها مرتين، كأنها تقسم قسمًا صامتًا.

وقال أنطوان في لهفة:

– "ستأتين غدًا؟ في نفس الساعة؟".

وهيئ له أنه لن يستريح ثانية واحدة قبل أن يعرف بالضبط متى سيضمها

إلى صدره من جديد.. ووافقت، فانتابت أنطوان موجة من الهدوء، وإن تساءل في قرارة نفسه إذا كان هذا الموعد لا يهمه في شيء.

لقد قرأ أنطوان كتبًا كثيرةً ولم يكن يظن أن القلق –أكثر من الغيرة– هو الذي يشعل العواطف، كان متيقنًا أنه يكفي ليمد يده ليجذب إليه لوسيل وسط هذا الصالون، حتى تنفجر الفضيحة، ولا يمكن إصلاح شيء، ولهذا السبب بالذات لم يجرؤ على أن يمد يده، وأن يتمتع بشيء آخر، غامض وحيوي، وهو: التنكر.

وقالت كلير سانتريه بصوت جعله يقفز من مكانه:

– أيها الفتيان؟ ماذا صنعنا بأصدقائنا؟

واعتمدت كلير على كتف لوسيل، وحدقت في أنطوان بنظرة تقدير وكأنها تتخيل نفسها مكان لوسيل.

وفكرت لوسيل.. والآن، نعرض عليكم نمرة "مؤامرة النساء" ودهشت أنها لم تنصت لهذه المؤامرة، حقًا لقد كان أنطوان جميلًا على هذا النحو المضطرب الحاسم في نفس الوقت، ولابد أن يكون تائهًا حتى يكذب مدة طويلة؛ فلقد خُلِق ليقرأ، أو يسير في خطىً طويلة ليطارح الغرام، ليصمت، لم يخلق للمجتمع. وهو يشبهها في عدم اكتراثها –وإن كانت تفوقه أحيانا– بالطقوس الاجتماعية.

وقال أنطوان بصوت خشن:

– هناك سيارة بلنديني عند المدعو ويليام.

ديانا وشارل يفكران.

واكتشف أنه ينطق اسم بلاسان لينير الأول..

فخيانة أي شخص، تضطرك إلى نوع من العشم.

وصاحت كلير:

– بولنديني؟ إنها أخر طراز، كيف عثر عليها ويليام؟

وقالت بصوت يلونه الغضب: "لم أكن أعرف".

وكأنها تغضب لاكتشاف خلل بسيط في شبكة معلوماتها، لابد أنهم سرقوا المسكين ويليام، لا يوجد غير الأمريكيين، هم الذين يشترون سيارة بولنديني دون أن يستشيروا سانتوس، وركزت اهتمامها على لوسيل بعد أن أقلقتها حماقة المسكين ويليام، وعدم احتياطه؛ لعل الوقت قد حان لكي تدفع هذه الصغيرة ثمن رعونتها وصمتها ورفضها لمشاركة أحد في لعبتها.

كانت لوسيل ترفع بصرها تجاه أنطوان، وكانت ابتسامتها هادئة متسلية مطمئنة، نعم، التعبير الصحيح هو الاطمئنان، ابتسامة لا يمكن أن تعرفها امرأة ما لم تكن تعرف رجلًا معرفةً صميمة، وتساءلت كلير في نفسها: "ولكن متى؟ متى تدفع لوسيل الثمن؟" وكان السؤال يتحرك بسرعة مجنونة في رأسها.

"إذن، كيف حدث هذا؟ كان العشاء في "مارن" منذ ثلاثة أيام، لم يكن أي شيء قد بدأ، لا بد أنه حدث بعد الظهر؛ فلا أحد في باريس الآن يطارح أحدًا الغرام في الليل؛ فالجميع يصبحون منهكين، ثم إنهم مشغولون باستقبال الأخرى؛ هل حدث ذلك اليوم؟"

وأخذت كلير تتفحصهما بنظراتها لترى العيون اللامعة والأنف المستريح، وبذلك الجنون الذي تتميز به بعض النساء حين ينتابهن الفضول حاولت كلير أن تكشف أثار المتعة عليهما.

وأدركت لوسيل، فاضطرت، على الرغم منها، أن تنفجر في الضحك.

وتراجعت كلير بوجهها، وتغير تعبير كلب القنص من على وجهها، ليحل محله تعبير عذب مستسلم، بما معناه: "فاهمة كل حاجة، وموافقة على كل شيء"؛ لكن هذا التعبير مر دون أن يلحظه أحد لسوء الحظ.

لأن أنطوان نظر إلى لوسيل، وضحك معها ضحكة الثقة، وقد أمتعه أن يراها تضحك، وأمتعه أيضا أنه يعرف أنها ستشرح له غدًا لماذا تضحك؟ غدًا في تلك الساعة السعيدة المنهكة التي تعقب الحب، ولذلك لم يسألها: لماذا تضحكين؟

وهكذا تتكشف كثير من العلاقات، بلحظات من الصمت أو الامتناع عن الأسئلة أو جملة غير مفهومة، أو بكلمة سر، وعلى أي حال، فإن أول من راقب لوسيل وأنطوان يضحكان، وأول من رأى تعبير السعادة عليهما لا يمكن أن يخطئه الحدس.

كانا يحسان ذلك، وكانا يستغلان بشيء من الفخر تلك الهدنة التي منحها الحديث عن السيارة، تلك اللحظات التي يستطيعان فيها تبادل النظر وتبادل الإعجاب دون أن يزعجا أحدًا، كانا يحسان الشباب، أو الطفولة التي يحظَر عليها أن تفعل شيئًا فتفعله رغم التحذير، ولم يقع عليها العقاب بعد.

وعادت ديانا تخترق الجمع بعد أن انحنت بسرعة خاطفة لصديق متعجل تناول يدها وقبلها، فانتزعت منه يدها بسرعة، ولم تتم إجابتها على سؤاله الرقيق عن صمتها، أو تأكيده الحماسي لجمالها؛ وبين هذه الضجة الغامضة التي تختلط فيها: "كيف حالك يا ديانا؟ لكم أنت فاتنة، يا ديانا، من أين أتيت بهذا الفستان الرائع، يا ديانا"، حاولت ديانا أن تصل إلى ذلك الركن المظلم، الشرير، الذي تركت فيه حبيبها وحبها مع هذه الفتاة التي يهتم بها.

أحست بكره شارل لأنه انتزعها بعيدًا عن الصالون، وكرهت السيارة وكرهت ويليام للقصة التي لا طعم لها والتي لا تنتهي، والتي دارت حول طريقة شرائه السيارة؛ لقد اشتراها بلا ثمن، كانت فرصة لا تعوض، التاجر المسكين كاد يموت غيظًا، المرعب حقًا أن كبار الأغنياء لا ينشغلون إلا بشيء واحد هو: استغلال الفرص والفخر بأنهم حصلوا على تخفيضات عند بيوت الأزياء وأثمان معقولة عند كارتييه.

الحمد لله أنها استطاعت الهرب من هذا الجو؛ فلم تصبح مثل هؤلاء النساء اللاتي يغازلن الباعة لإنقاص الأثمان، مع أنهن يملكن فيضًا من المال ولا حاجة للغزل، لا بد أن تقول ذلك لأنطوان، ولا شك أن هذا سيضحكه، إن العالم يسليها، وكانت تستعيد ما قرأته من بروست، وإن كان ما يقلقها أنها لا تجد وقتًا كثيرًا للقراءة.

توقفت ديانا وهي تفكر في نفسها:

"يا إلهي. لقد أصبحت سوقية، ألا يمكن التقدم في السن دون أن يصبح الإنسان سوقيًا؟"

إنها تعاني، إنها تبتسم لكوكو دي باليليل، وتغمز لمكسيم الذي غمز لها دون أن تعرف السبب، واصطدمت بعشر عقبات مبتسمةً لطيفة، وشقت أخيرًا طريقها لتصل إلى أنطوان الذي كان يضحك هناك، يضحك بصوته الخفيض، لابد أن توقف هذه الضحكة، وتقدمت خطوة، ثم أقفلت عينيها من الراحة، كان يضحك مع كلير سانتريه، وكانت لوسيل قد أدارت ظهرها لهما.

الفصل التاسع

– إنهم يُقبِلون على الشراب أكثر وأكثر، أليس كذلك؟

قالها شارل، وكانت السيارة تسير بهدوء فوق أرصفة نهر السين؛ لأن السماء تمطر، ووضعت لوسيل رأسها على الباب كعادتها؛ حتى تسقط بعض حبات المطر على وجهها، كانت تشم رائحة باريس في الليل، في إبريل، وكانت تفكر في وجه أنطوان المقلوب حين وجب أن يفترقا في أدب منذ نصف ساعة، كانت تحس بالروعة، وقالت في ابتهاج:

– الناس أصبحوا يخافون كل شيء؛ يخافون تقدم السن، يخافون أن يفقدوا ما يملكون، يخافون ألا يحصلوا على ما يريدون، يخافون من الملل، ويخافون من إثارة الملل في الآخرين، إنهم يعيشون في حالة دائمة من الهلع والطمع.

وقال شارل:

– إنني لم أتنبه تمامًا لذلك؛ فلست في النهاية عالمًا نفسيًا– كما تعلمين– كل ما ألاحظه أن عدد الذين يرتمون بين ذراعيَّ، دون أن أعرفهم، أصبح كثيرًا هذه الأيام، كما أن عدد الذين يترنحون في الصالونات يزداد يومًا بعد يوم.

ولم يستطع شارل أن يقول لها: "إنني لا أهتم بأحد سواكِ، إنني لا أدرس نفسية أحد ساعاتٍ وساعاتٍ سوى نفسيتك، إنني فريسة فكرة ثابتة: أنني

أيضًا كما قلتِ، أخاف أن أفقد ما أملك، وأنني أنا أيضًا فريسة دائمة للطمع والهلع".

وأدخلت لوسيل رأسها، ونظرت إليه، وأحست فجأة بحنان شديد نحو. إنها لم تحبه من قبل كما تحبه الآن، كان لابد أن تقاسمه هذه السعادة الشديدة التي تحسها الآن، وهي تفكر في غيرها.

"إن الساعة الآن العاشرة، وبعد سبع عشرة ساعة سأكون بين ذراعي أنطوان، عليَّ أن أنام غدًا متأخرةً حتى لا أحسَّ بمرور الوقت"، ووضعت يدها على يد شارل، كانت يده جميلة، رقيقة، معتنىً بها، بها بعض النقط الصفراء التي بدأت تظهر عليها.

– كيف كانت العربة البلنديني؟

وخطر إلى شارل خاطر مرير: "إنها تحاول إرضائي، إنها تعلم أنني رجل أعمال ورجل متذوق لكنها لا تعلم أن عمري خمسون عامًا، وأنني تعس كحيوان".

– جميلة، إنها من العهد الزاهر؛ لقد حصل ويليام عليها مقابل لا شيء.

وقالت لوسيل وهي تضحك:

– إن ويليام يحصل على كل شيء مقابل لا شيء.

وقال شارل:

– نفس الفكرة التي قالتها ديانا.

وطواهما صمت غامض.

وقالت لنفسها: "لن أبدأ في الصمت المحرج، كلما تكلم عن ديانا وأنطوان، إن هذا حمق، لو أنني استطعت فقط أن أقول له الحقيقة:

إن أنطوان يعجبني، إنني أرغب في الضحك، في أن أرتمي بين أحضانه ولكن أي شيء أفظع من هذا ليقال لرجل يحبني، لعله سيتحمل أن أنام معه، أما أن أضحك.. فلا.. إنني أعرف ذلك تمامًا؛ فالضحك يلهب الغيرة".

قالت:

– إن ديانا في حالة غريبة، كنت على وشك الحديث مع أنطوان وكلير حين رأيتها تعود إلى الصالون، كان يبدو عليها التسمُّر والغيبوبة، حتى إنني خفت منها، وحاولت الضحك.

تحول إليها شارل:

– الخوف؟ تريدين أن تقولي الشفقة؟

وقالت بصوت هادئ:

– نعم، الشفقة كذلك.

ليس في تقدم سن المرأة أي بهجة.

وقال شارل متماسكا:

– أؤكد لك.. ولا بالنسبة للرجل أيضًا.

وضحكا ضحكة مزيفة جمَّدَت دماءهما، وقالت لوسيل في نفسها: "إننا

نتجنب الصدام، فكيف نفعل ما يجب؛ ولكنني غدًا في الخامسة سأكون في أحضان أنطوان".

واكتشفت لوسيل أنها، وهي تكره الوحشية، قد أسعدها أنها قادرة عليها؛ لأنه لا أحد ولا أية شفاعة تستطيع منعها من الذهاب إلى أنطوان غدًا.. لتجد جسده وأنفاسه وصوته، كانت تعرف ذلك عن يقين، لكنها دهشت من مضاء رغبتها، تلك الرغبة التي كانت تتأرجح فيها كل مشاريعها طبقًا لمزاجها أو لاختلاف الزمن، أدهشتها رغبتها أكثر من هذا الفرح المكتمل الذي أحست به منذ هُنيهة، حين التقت نظرتها بنظرة أنطوان، إن عاطفتها الدافقة حين كانت في العشرين كانت عاطفة تعسة، حتى إنها احتفظت للحب بذكرى يمتزج فيها الحزن والفكر، ذكرى تقترب من إحساسها بالدين وكأنها تحس بعاطفة تائهة.

وها هي الآن تكتشف فجأةً قوة الحب –الحب السعيد– فيبدو لها أن وجودها لم يعد ينحصر في كائن واحد، بل أصبح وجودها هائلًا منتصرًا، يستحيل اقتلاعه بأي شيء؛ لقد بدأت تخاف من الحياة، بعد أن كانت أيام عمرها تمر بلا اكتراث ولا حساب، كانت تخشى ألا يسعفها الزمن لحب أنطوان.

– إن عليَّ أن أسافر إلى نيويورك قريبًا. فهل تأتين معي؟

كان صوت شارل هادئًا، وكأنه يفترض قبولها؛ فهو يعرف أن لوسيل تحب الرحلات، لكنها لم تجب على الفور.

– ولم لا؟ هل ستبقى طويلًا؟

فكرت: "مستحيل! مستحيل! كيف أستطيع الحياة من غير أنطوان عشرة أيام؟ إن شارل يفرض شروطه إما متأخرًا جدًا أو متقدمًا جدًا، يفرض شروطه بوحشية شديدة، إنني أعطي كل مدن العالم مقابل غرفة أنطوان، ليست لي رحلات، ولا اكتشافات غير ما نفعله سويًا"، واستعادت خاطرًا محددًا مفاجئًا واضطربت؛ فدارت برأسها تجاه الشارع.

وقال شارل:

– عشرة أيام، أو خمسة عشر يوما، أن نيويورك رائعة في الربيع.

إنكِ لم تريها سوى في عز الشتاء، ولا زلت أذكر أنفك الأزرق في إحدى الأمسيات؛ لأن البرد كان قارسًا، كانت عيناكِ متجمدتين، وشعركِ منفوشًا من الازدراء، وكنتِ تنظرين إليَّ نظرات اللوم كأن الخطأ خطأي، وأخذ في الضحك بصوت هادئ مهدَّج بالحنين.

وتذكرت لوسيل برودة ذلك الشتاء اللعين، لم تحفظ له أي ذكرى رقيقة، مجرد انتقال تائه في التاكسي بين الفندق والمطعم، إن الذكريات الذهبية المخبولة العاطفية لا يحس بها أحد غير شارل، وأحست فجأةً بالخجل، إنها تعتمد أيضًا وتستند على عواطف شارل، وهذا يسبب لها الضيق أكثر من أي شيء آخر.

إنها لا تريد أن تجعله يتعذب، ولا تريد أن تكذب عليه، ولا تريد أن تقول له الصدق.

إنها تريد أن تتركه يخمن كل شيء دون أن تشرح له الأمر.

نعم. لشد ما هي جبانة شديدة الجبن.

وأصبحا يلتقيان، هي وأنطوان، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.

وأثبت أنطوان سعة خياله ليستطيع أن يترك مكتبه، وكانت لوسيل – على أي حال– لا تحكي مطلقًا لشارل ما يحدث لها.

كانا يلتقيان في الغرفة الصغيرة مضطربين يهبطان إلى الظلام ولا يجدان وقتًا للكلام.

لم يعرف أحدهما شيئًا عن الآخر، ولكن جسديهما كانا يتعارفان بكثير من السخونة، وبعاطفة مطلقة، حتى إن ذاكرتهما كانت تحتمي في اندفاعة اللحظة، حتى إنهما كانا حين يفترقان يبحثان عبثًا في يأس عن ذكرى محددة، عن كلمة مهموسة، أو عن حركة تائهة في الظلام.

كانا يفترقان كنائمين تائهين، ولا تكاد تمر ساعتان على فراقهما حتى يبدأ من جديد، ينتظران الحقيقة الوحيدة في حياتهما.. لحظة اللقاء من جديد.

وكل ما عدا ذلك أصبح ميتًا.

الانتظار فقط، كان يجعلهما يدركان الوقت والساعة والآخرين؛ لأن الانتظار كان يبدو لهما عقبة كبيرة، كانت لوسيل قبل أن تذهب إلى أنطوان تبحث عدة مرات عن مفتاح سيارتها في الحقيبة، وتتذكر عدة مرات الشوارع التي ستمر فيها قبل أن تصل إلى بيته، وتنظر عدة مرات إلى المنبه الذي كانت من قبل تحتقره تمامًا طوال حياتها.

وكان أنطوان ينبه سكرتيرته عدة مرات أن أمامه موعدًا عاجلًا في الرابعة،

ويترك العمل في الرابعة إلا ربعًا، وإن كانت المسافة بين العمل والبيت لا تستغرق سوى دقيقتين مشيًا على الأقدام.

كانا يصلان، باهتين قليلًا، لأنها كانت تظن أن ازدحام الطريق بالسيارات سيؤخرها، ولأنه تقابل مع أحد المؤلفين الذين ينشرون في دار نشره، وعطله عن السير.

كانا يتعانقان، وهما يتنهدان، وكأنهما قد نجوا من خطر عظيم، وكان هذا الخطر في أسوأ الأحوال هو أن يتأخرا خمس دقائق في لقائهما.

كانا يقولان "أحبك" في بهجة.

وكان أنطوان ينحني أحيانًا على لوسيل، وكان حين يسترد أنفاسه، وقد أقفل عينيه، يمر على وجهها وكتفها بيده، قائلًا بصوت رقيق:

– "إنكِ تعجبينني".

وكانت تبتسم.

وكان يحدثها عن ابتسامتها، وكيف أن ابتسامتها تقلقه حين تتوجه بها لشخص آخر، وقد اتسعت عيناها.

كان يقول لها:

– إن ابتسامتك مستسلمة، وهذا مقلق.

– ولكنني أفكر في شيء آخر، في أن أكون لطيفة، إنه ليس الاستسلام، بل الفراغ.

– الله يعلم في أي شيء تفكرين، يبدو عليك أنك تمضغين سرًا من الأسرار، أو حركة من الحركات أثناء حفلات العشاء.

– إنني أفكر حقيقة في سر أنطوان.

وأمالت لوسيل رأس أنطوان على كتفها، وهمست:

– لا تفكر كثيرًا، إننا بخير.

وسكت أنطوان. لم يجرؤ أن يصارحها بما يعتمل في نفسه دائمًا، وما يجعله يسهر الليالي الطويلة جوار ديانا التي تتظاهر بالنوم، "لا يمكن أن يستمر هذا، لا يمكن، لماذا لا توجد الآن بجانبي؟"

إن عدم الاكتراث أو القدرة التي تميزت بها لوسيل على أن تنكر أي مشكلة كانت تجعل أنطوان يضطرب.

كانت ترفض الحديث عن شارل، وتمسك عن الحديث في أي مشروع قادم؛ فهل هي ترتبط –من قبيل المصلحة– ببلاسان لينير؟

لكنها تبدو حرة، وهي تنتزع نفسها كلما جاء الحديث عن النقود.

والله يعلم أن أكثر الذين يتكلمون عن المال هم الذين يملكون أموالًا كثيرة، وكان يستطيع أن يتخيلها تفعل شيئًا يقوم على الحساب.

كانت تقول له: "إنني أتمتع بتذوق كل ما هو سهل".

وكانت تقول له: "إنني أمقت غريزة التملك"، وكانت تقول له: "أوحشتني"، ولم يكن يستطيع أن يوفق بين كل ما كانت تقول.

كان ينتظر باضطراب أن يحدث شيء، أن يُضبَطا معًا، أن تضعه المقادير في دور الرجل؛ لكنه كان يحتقر نفسه لذلك.

كان أنطوان يعرف عن نفسه أنه غير مكترث وأنه شهواني، ولكنه رغم ذلك يحتفظ بقدر غير قليل من الأخلاق.

ولم يحس من قبل برغبةٍ في امرأة كما أحس بالرغبة في لوسيل.

لقد ارتبط بالعاطفة بكثيرات، ولكنه حوّل عَلاقته مع سارة إلى قصة حب تراجيدية.

كان يعلم أنه كثيرًا ما يقع فريسة الصراعات الداخلية بسهولة.

والحق أنه كان موهوبًا بالشقاء أكثر من موهبته بالسعادة، ولم تكن لوسيل تستطيع شيئًا سوى أن تلومه على ذلك.

لم يفهم كيف أنها لم تحب سوى مرة واحدة، منذ عشر سنوات، وأنها نسيت حبها، وأنها تعتبر عاطفتها هدية رائعة غير متوقعة، لم تكن تطمع فيها لكنها هدية هشة، لم تكن تريد –من باب التطير– أن تتخيل إلى أين يذهب مصيرها.

كانت تحب أن تنتظره، وتحب أن يوحشها البعد عنه، وتحب أن تختفي عنه، وتحب أن تعيش معه في وضح النهار.

كانت تحس في كل لحظة من السعادة كل الكفاية.

وكانت تفاجئ نفسها، وهي –منذ شهرين– تحس بشيء من الحنان، حيث تسمع أغاني الحب الممجوجة، وإن كانت لا تعبأ مطلقًا بما تحويه من معاني "الخلود والإخلاص" تلك المعاني الدارجة.

ذلك أنها كانت تؤمن بمبدأ واحد، هو ألا تكذب على نفسها، ولذلك أصبحت تجد نفسها وقد تورطت في سخرية مريرة عميقة على الرغم منها.

وكأن القدرة على تحليل العواطف تؤدي إلى السخرية والمرارة، على حين أن الغشاشين والمجانين وحدهم هم الذين يستطيعون البقاء رومانسيين إلى الأبد.

كانت تحب أنطوان، ولكنها تتمسك بشارل؛ فأنطوان هو سعادتها، وهي لا تريد إشقاء شارل.

لم تستطع بين الاثنين أن تفكر في نفسها بالقدر الكافي الذي يجعلها تحتقر نفسها لأنها تقسم نفسها بينهما.

إن عدم قدرتها على الشبع جعلها متوحشة، وباختصار، لقد كانت سعيدة!

إن الصدفة وحدها هي التي جعلتها تكتشف أنها تستطيع المعاناة.

لم تكن قد رأت أنطوان منذ ثلاثة أيام، لأن تلك الحفلات الباريسية تصادف أن جعلته يضيع بين المسارح وحفلات العشاء المختلفة.

كانت على موعد معه في الرابعة، ووصلت في الموعد، ودهشت لأنها لم تجده يفتح الباب لها.

ولأول مرة استخدمت المفتاح الذي كان قد أعطاه لها.

كانت الغرفة خاوية والنوافذ مفتوحة، وظنت للحظة أنها أخطأت؛ لأن الغرفة كانت مرعبة.

لم يكن أنطوان يضيء غير مصباح أحمر على الأرض لا يضيء شيئًا غير السرير وجزء من السقف.

ودارت متسلية في تلك الغرفة التي تجهلها تمامًا، وتعرفها تمامًا، تبحث في عناوين الكتب فوق الرفوف، والتقطت كرافتة من فوق الأرض، وأخذت تفحص لوحة من ١٩٠٠ ظريفة لم ترها مطلقًا من قبل.

ولأول مرة فكرة في حبيبها على أنه أعزب شاب، يعمل بدأب، أو على الأصح يعمل بتواضع.

من هو أنطوان؟ من أين أتى؟ من هما والداه؟ كيف كانت طفولته؟

وجلست على السرير، ثم أحست بالحرج لحظةً؛ فاتجهت إلى النافذة، أحست أنها في بيت غريب، وأحست أنها فضولية.

ولأول مرة أحست أن أنطوان "مخلوق آخر"، وأن كل ما تعرفه من يديه وفمه وعينيه وجسمه لا يكفي ليكون شريكها الذي لا ينفصم.

أين هو؟

الساعة الرابعة والربع، والتليفون لا يدق.

أخذت تتنزه في الغرفة الصغيرة من الباب إلى النافذة، وتناولت كتابًا ولم تفهم ما تقرؤه، فوضعته جانبًا.

ومر الوقت، لو كان قد قرر عدم المجيء لاتصل تليفونيًا.

ورفعت السماعة خوفًا من أن تكون قد وُضِعت خطأً، لكن السماعة كانت في وضعها الصحيح.

ماذا لو أنه لا يريد الحضور؟

وجعلتها هذه الفكرة تتسمر في وسط الغرفة، وأرهفت حواسها كجندي حارس تصيبه رصاصة داهمة في الصميم.

وهبت عاصفة عارمة في ذاكرتها.

إن اللوم الذي استشعرته في عيني أنطوان لم يكن لومًا، بل كان مللًا.

وهذا التردد في المرة الماضية، حين سألته عما يعذبه لم يكن يرجع إلى الخوف من إقلاقها كما حسبت أول الأمر، ولكن كان يرجع إلى الخوف من أن يجعلها تتعذب لو اعترف لها بالحقيقة، من أنه لم يعد يحبها.

ورأت فجأةً عشرة مواقف لأنطوان، كلها ترجع إلى اللامبالاة.

وهمست في نفسها بصوت هادئ: "هيا، إنه لم يعد يحبني".

ولكن هذه الجملة القصيرة ارتدت إليها كأنها فرقعة سوط، ووضعت يدها على رقبتها كأنها تريد أن تحمي نفسها.

"ولكن ماذا أفعل بنفسي لو أن أنطوان لم يعد يحبني؟"

وبدت لها حياتها وقد حرمت من الحرارة والضحك والدم، كتلك الصورة الفظيعة لهذه الأرض التي أصبحت قاحلة في بيرو، والتي ظهرت في مجلة "باري ماتش"، والتي أعجب بها أنطوان إعجابًا لا يخلو من الشذوذ، وظلت واقفةً فريسة زلزال داخلي كان من القوة حتى إنها هرعت لنجدة نفسها.

وقالت لنفسها: "لا عليك، لا عليك".

كانت تحدث جسدها وقلبها، كأنما تحدث حصانين خائفين.

وتمددت على السرير مضطرةً إلى التنفس في هدوء.

ولكن لا فائدة؛ فقد امتلكها نوع غريب من الرعب واليأس جعلها تهز كتفيها بين يديها، وتضع رأسها على الوسادة.

وسمعت صوتها وهو يئن:

"أنطوان، أنطوان.. وفي نفس الوقت الذي أحست فيه بهذا الألم الذي لا يحتمل، اجتاحتها موجة رهيبة من الدهشة.

"إنكِ مجنونة، مجنونة"، ولكن شخصًا آخر صرخ بصوت أعلى:

"وعيون أنطوان الذهبية، وصوت أنطوان، ماذا تستطيعين أن تفعلي من غيره أيتها الحمقاء؟"

ودقت الساعة الخامسة في إحدى الكنائس، وخيل لها أن إلهًا غاضبًا يدق الأجراس من أجلها.

ودخل أنطوان، وحين رأى التعبير على وجهها، توقف لحظة، ثم ارتمى بجانبها على السرير.

كان مجنونًا من فرط السعادة، ولم يكن يدري السبب، وغطى وجهها وشعرها بالقبلات الحنونة، ولعن مدير الدار الذي اضطره إلى البقاء ساعةً في المكتب.

والتصقت به، وتمتمت باسمه بصوت غير محدد.

ثم وقفت، وجلست على السرير، وأدارت له ظهرها.

وقالت:

– إنني أحبكَ إلى الأبد.

وقال:

– وأنا كذلك، صدفة سعيدة.

وبقيا لحظة من الصمت والفكر.

وعلت ابتسامة مستسلمة على وجه لوسيل، وعادت إليه، ونظرت بجدية إلى وجه الذي تحبه وهو يقترب منها.

الفصل العاشر

لم تكد تمر ساعتان على فراقهما حتى أحست لوسيل كأن كارثة وقعت، كان الحب قد أنهك قواها، وأشبعها، وأفرغ رأسها، وخشيت أن يكون الرعب الذي أصابها لا يرجع إلى تأجج العاطفة بل إلى اضطراب الأعصاب، وقررت بينها وبين نفسها أن تزيد من ساعات نومها، وأن تقلل من الشراب، وكانت لوسيل قد تعودت على الحياة بمفردها، وحيدة وحدة عميقة، ولم تتعود على ذلك الشعور بأن تفتقد شخصًا أو شيئًا، وبدا ذلك لها مرعبًا بدلًا من أن يريحها، وانسابت سيارتها على كورنيش السين، وكانت تقودها دون وعي، وهي مبهورة بالنهر الذهبي الذي يقع على مرمى بصرها، في تلك الليلة الفاتنة التي يفتح بها الربيع موسمه، وابتسمت ابتسامةً قصيرة...

– ماذا أصابها؟.. في مثل هذه السن؟ ماذا أصاب حياتها؟

على أية حال، إنها امرأة ساخرة قاسية، يرعاها رجل من الأثرياء، ضحكت للفكرة الأخيرة، وابتسم لها راكب سيارة قريبة، فابتسمت له وهي شاردة واسترسلت في خواطرها..

– "نعم، من أنا؟"

إن ما يقوله الناس عنها لا يهم، وما يرونه فيها لا يهم أيضًا، لقد فقدت القدرة على أن ترى نفسها.. فهل ينبئ هذا بشرٍ مستطير؟ هل أصابها الغباء؟ لقد قرأت كثيرا وهي صبية قبل أن تكتشف أنها ساذجة، لقد أثارت أسئلة عديدة في حياتها قبل أن تصبح هذا الحيوان المستأنس الذي تقدم له أجود

الأطعمة وأغلى الثياب، وقبل أن تصبح ذلك الحيوان خفيف الحركة الذي يتجنب أي تعقيد في الحياة؛ فإلى أين تذهب بروحها؟ وماذا تفعل؟ إنها تظن، حين ترى هذا الخط في بطن يدها أنها ستموت في عز شبابها، وقد عانت هذا الحظ، ولكن ماذا لو أنها عاشت حتى تشيخ؟ وحاولت أن تتخيل نفسها وهي فقيرة عجوز، هجرها "شارل" فأصبحت تتخبط باجتهاد في مهنة ليس فيها شيء من الإغراء، وكأنها كانت تحاول إخافة نفسها ولم تستطع؛ ففي هذه اللحظة، ومهما حدث لها، كان النهر يبدو لها ذهبيًا، مضيئًا بالقرب من القصر الكبير.

لم تعد تحتاج إلى العربة الأنيقة ولا هذا المعطف من محلات "لاروش" حتى تعيش، كانت واثقة مطمئنة، ولا شك أن شارل أيضًا يعرف ذلك على وجه اليقين، وكان هذا يشقيه، إنها لا تحتاج إليه، وككل مرة تترك فيها أنطوان كانت تحس بنفحة من الحنان لبلاسان لينير وبرغبة عارمة لو استطاعت إسعاده.

ولم تكن تعلم أن شارل أيضًا كان قد تعود أن يجدها حين يعود إلى بيته، وأنه يفعل كما كانت تفعل تمامًا منذ ثلاث ساعات في غرفة أنطوان، كان يذهب ويجيء ويسرع الخطى وهو يسائل نفسه نفس السؤال:

– ماذا لو قررت أن تهجره إلى الأبد؟

لم تكن تعلم ذلك، ولم تستطع العلم لأنها وجدت شارل يقرأ "الموند" غارقًا، وقد تمدد على سريره، كان شارل يحفظ عن ظهر قلب صوت سيارتها، وسألها هل كان صباحها جميلًا، بصوت هادئ، وقبَّلها بحنان، وكان يضع

"الكولونيا" التي تحب لوسيل رائحتها، ولا شك أنها فكرت في أن تشتري مثلها لأنطوان.

وقالت: صباح جميل، لكنني أخاف.. وتوقفت..

كانت ترغب في أن تصارحه بكل شيء، "أخاف أن يضيع مني أنطوان وأخاف أن تضيع مني"، ولكنها لم تستطع، لم تجد أحدًا تصارحه، وتحكي له ماذا حدث في مسائها الغريب، لم تتعود أن تبث أحدًا أسرارها، وكان هذا يحزنها بعض الحزن، وقالت في شيء من الاضطراب:

– أخشى أن أعيش على الهامش؟

وقال شارل:

– على هامش أي شيء؟

– هامش الحياة. ما يسميه الآخرون الحياة. هل أعتقد أنه لا بد من الحب؟ ألا بد من العاطفة ألا بد أن يعيش الإنسان، وأن يكسب قوته ليوجد؟

وقال شارل وهو يخفض عينه:

– ليس هذا ضروريًا، ما دمت سعيدة.

– هل تعتقد أن هذا يكفي؟

– طبعًا.

وجلست لوسيل على السرير، ومدت يدها وربتت على وجهه المتعب.

وأقفل شارل عينيه، وابتسم ابتسامة خافتة.

وكأنها تحولت فجأة، فأصبحت تدرك وتفهم وتقدر، كأنها أصبحت قادرة على إسعاده، لم تقل لنفسها أن هذا الحنان المفاجئ إنما يرجع إلى إحساسها بالسعادة الغامرة لأنها رأت أنطوان، ولو أن أنطوان لم يجيء لأحست بازدراء شارل؛ فحين يكون الإنسان سعيدًا يتصور الآخرين كأنهم أتباع يلحقون به ويلحقون كالحاشية بسعادته؛ أما حين تتبدد سعادته فإنه يكتشف أن الآخرين ليسوا إلا شهودًا لا أهمية لهم.

وسألته لوسيل: ماذا سنفعل هذا المساء؟

وقال شارل:

– هناك هذا العشاء عند ديانا. هل نسيته؟

وكان صوته مبهورًا، وسعيدًا في نفس الوقت، وخمنت السبب، فاحمرّ وجهها، وحين قالت له: "نعم" قالت له الحقيقة، لكنها أيضًا أوقعته في الخطأ، فلم تجرؤ أن تقول له: "نعم نسيت العشاء، لكني لم أنس أنطوان، إنني قادمة من عنده؛ لقد كنا تائهين إلى حد أننا تواعدنا على اللقاء غدًا".

وقالت:

– لم أنس العشاء، ولكنني لم أكن أعرف أن العشاء عندها، أي ثوب تريد أن ترتديه؟

واندهشت، لأنها لم تكن تحس بالفرح لأنها سترى أنطوان بعد ساعات قليلة، على العكس كانت مضطربة، لقد أصابتها بعد الظهر قمة الانفعال،

وبدا لها، لو جاز استخدام هذا التعبير على العواطف، أن كأسها قد فاضت عن آخرها، وفضلت لو استطاعت أن تتناول العشاء مع شارل بعيدًا في هدوء، وفتحت فمها لتتكلم فلم تستطع، إن الذل سيشعره بالسعادة، ولسوف تورطه في سعادة كاذبة، ولم ترد الكذب عليه.

– ماذا تقولين؟

– لا أعرف.

– إن شطحاتك الميتافيزيقية تظهر عليك الارتباك أكثر من المعتاد.

وضحكت قائلة:

– أنا على العموم مضطربة؟

– تمامًا.

– إنني لا أستطيع تركك تسافرين وحدك، فلسوف أعثر عليك، في إحدى صالات الترانزيت، الله يعلم في أي مكان، بعد ثمانية أيام، وحولك كتب الجيب، وبالطبع تعرفين كل شيء عن حياة الخدم في البارات.

وكأن القلق يبدو عليه من هذا الاحتمال، فضحكت.

إنه يتصورها غير قادرة على الانسجام مع الحياة، وفي لحظة كالومض أدركت أن هذا التصور بالذات هو ما يربطها به أكثر من مجرد عاطفة الأمان.

إنه يتقبل عدم اكتراثها، ويغذي اختيارها اللاواعي، منذ خمسة عشر عامًا، في أن تبقى مراهقة إلى الأبد؛ إن نفس هذه "المراهقة" هي التي تغضب "أنطوان"، وتجعله يثور عليها.

ولعل الصدفة في التشابه بين الشخصية التي أرادتها لوسيل لنفسها، وتلك التي يراها فيها شارل، أقوى من أي عاطفة تجعله يضطر إلى التخلي عنها.

وقال شارل:

– إنني في غاية التعب... لنتناول كأسًا من الويسكي!

وقالت لوسيل:

– إن بولين لا تريدني أن أشرب، فاطلب كأسًا "دوبل" وسأشرب من كأسك.

وابتسم شارل. وضغط على الجرس.

وقالت لوسيل في نفسها: "إنني ألعب دور الفتاة الصغيرة، دون إرادتي، ولن يمضي وقت طويل حتى أضع العرائس على سرير".

وانسحبت ومرت في غرفتها، ونظرت إلى سريرها، وتساءلت لو أنها ستصحو ذات صباح لتجد أنطوان إلى جوارها.

الفصل الحادي عشر

كانت شقة "ديانا" في شارع كامبون جميلة أنيقة، غارقة في الزهور، وعلى الرغم من أن الجو كان لطيفًا، وأنها تركت الأبواب والنوافذ مفتوحة، إلا إنها أشعلت نيران المدفأة في طرفين من أطراف الصالون.

استنشقت لوسيل مغتبطة رائحة الجو التي كانت تفوح برائحة صيف قادم، صيف ساخن مترب، لكنها كانت تستنشق أيضًا رائحة الأخشاب المشتعلة التي تذكرها بالخريف الذي يمضي، والذي يرتبط برائحة غابة سولوني التي كان شارل يصحبها إليها للصيد.

وقالت لوسيل لديانا:

– ما أجمل أن تمزجي فصلين من فصول السنة في ليلة واحدة.

وقالت ديانا:

– نعم. ولكن الواحدة منا تحس أنها لا تلبس الثوب الملائم.

وضحكت لوسيل، وكانت ضحكتها هادئة، وقد أخذت تكلم ديانا دون حرج إلى درجة أن ديانا أخذت تسأل نفسها.

– أليس من الغباء أن أغار من مثل هذه الفتاة؟

والحق أن لوسيل كانت تتصرف بلباقة، وكان يبدو على وجهها هذا التعبير التائه، كأنها على هامش الحياة، ذلك التعبير الذي كان أنطوان يلومها بسببه، وكأن ما يربطهما شيء آخر، كان بلاسان لينير هادئًا تمامًا، ولم يكن

أنطوان أسعد مما كان يبدو الآن، ولعلها مخطئة في ظنها، وأبدت ديانا للوسيل شيئًا من التعاطف، بل وشيئًا من الامتنان.

– تعالي معي، سأريك بقية الشقة، هل تمتعك الرؤية؟

وتفحصت لوسيل الحمام ونقوش السيراميك الإيطالية، وعلا صوتها بالإعجاب بالشماعة، وتبعت ديانا إلى غرفتها.

– اعذري هذا الاضطراب.

كان أنطوان قد غير ملابسه عندها، وكان قميصه وكرافتته ملقيين على الأرض، وخطفت ديانا نظرة إلى لوسيل، فلم تر سوى تعبير خفيف عن الحرج، لا يصدر إلا عن شخص مهذب، لكن شيئًا دفع ديانا... شيئًا لم تستطع كتمانه؛ فالتقطت الثياب ووضعتها فوق "فوتي" وعادت إلى لوسيل، التي لم تتحرك، وإن كانت تبتسم ابتسامة مواسية:

– إن الرجال مهملون..

ونظرت إليها في عينيها.

وقالت لوسيل بلطف:

– إن شارل منظمٌ جدًا.

وأحست برغبة في الضحك: "ماذا تظن؟ هل ستقول لي إن أنطوان لا يستخدم معجون أسنانه؟". لم تحس بالغيرة، أحست كأن الكرافتة صديق قديم من أصدقاء الكلية تقابله كمعجزة بعيدًا تحت أقدام الأهرامات، وفكرت في نفس الوقت أن ديانا فائقة الجمال، وأن أنطوان غريب حقًا لأنه

يتركها ويأتي إليها، كانت تحس بالموضوعية والدقة، وبالترحيب كما يحدث لها عادة حين تفرط قليلًا في الشراب.

وقالت ديانا:

– علينا أن نعود إلى هناك، لا أعرف لماذا أحس أنني مضطرة من وقت لآخر لإقامة الحفلات؛ إنها متعبة جدًا لربة البيت.

ولست أظن أن الناس يستمتعون بقدر هذا التعب.

وقالت لوسيل عن اقتناع:

– السهرة بهيجةٌ جدًا.

إن كلير تكشر قليلًا، وهذه علامةٌ طيبة.

– هل لاحظت ذلك؟ "وابتسمت ديانا". لم أكن أظن ذلك.

إنكِ دائمًا تبدين لي.. تبدين..

– تائهة.

– تمامًا.

– لقد قال لي ذلك شارل في الساعة السابعة، سينتهي الأمر إلى أن أصدق ما تقولون.

وأخذتا في الضحك، وأحست لوسيل بشيء من العاطفة تجاه ديانا؛ فمن النادر أن تجد في هذا الوسط الصغير مثل هذه المرأة المتميزة... من النادر أن تسمعها تنطق سخفًا، أو تقول شيئًا فظًا. وكان شارل وهو الرقيق

جدًا يذكرها بالخير دائمًا، وأسفت لأنها لا تستطيع أن تصبح صديقتها.

يمكن أن يحدث ذلك لو أن ديانا كانت حقيقة ذكية؛ فإن كل شيء سوف ينتهي على خير، وبدا لها هذا التفاؤل الساذج علامة على العقل، ولم يوقفها عن الاسترسال سوى دخول أنطوان إلى الغرفة، أوقفها عن أن تبدأ في شرح الأمر لديانا، مما كان يمكن أن ينتهي إلى كارثة.

وقال أنطوان:

– إن ديستريه يبحث عنك في كل مكان، إنه جن من الغضب.

ونظر إلى لوسيل وديانا باضطراب.

وفكرت ديانا:

– "لعله يظنني أغار من لوسيل، وأنني أبحث عن دليل، ما دمت قد شاهدت ابتهاج لوسيل الواضح، يا له من مسكين..؟!

قالت:

– إننا لا نفعل شرًا، إنني أُري لوسيل الشقة لأنها لم تكن رأتها، وتضاحكت لوسيل لاضطراب أنطوان، وتضاحكتا سويا كأنهما تتآمران، واشتعل غضب رجولي في قلب أنطوان، وقال في نفسه:

– "وكيف أخرج من أحضان واحدة لأنام في أحضان الأخرى وهما تسخران مني؟"

وقال:

– هل قلت شيئًا شاذًا؟

وقالت ديانا:

– لا شيء، يبدو عليك الاهتمام أكثر من اللازم بأعصاب ديتريه، وأنت تعرف كما أعرف أنه لا يكف عن الغضب.

إن هذا يسلينا جميعًا، هذا هو كل شيء.

وتقدمت ديانا وتبعتها لوسيل، وهي توجه إليه تكشيرة مملوءة باللوم والتململ، وتردد لحظة ثم ابتسم، لقد قال لها منذ ساعتين: "سأحبك إلى الأبد"، وهو يتذكر الآن صوته الذي نطق به هذه الكلمات، وتستطيع الآن أن تلعب ما شاء لها اللعب، وحين عادت لوسيل إلى الصالون، اصطدمت بجوني الذي كان يحس بالملل فأسرع إليها، وأعطاها كأسًا في يدها، وسحبها ناحية النافذة، وقال:

– لوسيل، إنني أعبدك يا لوسيل، إنني أحس معك بالطمأنينة لأنني أعرف أنك لن تحدثيني عن آخر مسرحية، ولا تتحدثين عن سيرة المدعوين.

– إنك تقول لي هذا الكلام كل مرة.

وقال جوني:

– خذي حذرك، فالسعادة تبدو على وجهك بوقاحة!

ومرت لوسيل بيدها على وجهها دون وعي كأن السعادة قناع نسيت أن تخلعه، حقًا لقد قالت هذا اليوم لشخص: "أحبك" وقال هذا الشخص: "وأنا كذلك"؛ فهل يكون ذلك واضحًا إلى هذا الحد؟ وأحست فجأة أنها

أصبحت بوصلة الاجتماع، وظنت أن المدعوين جميعًا ينظرون إليها، فاحمر وجهها، وشربت في جرعة واحدة كأس الويسكي التي ذاب ثلجها وكان قد أعطاها لها جوني، وقالت في ضعف:

– إن مزاجي رائق، وهذا كل شيء، كما أنني أجد المدعوين ظرفاء.

وتملكت لوسيل فكرة كأنها، وهي التي لا تكترث بمثل هذه السهرات، تريد أن تعتذر عن هذا التعبير الذي يعلو وجهها، مثل هؤلاء النساء القبيحات حين لا يتوقفن عن الحديث حتى ينسى الناس قبحهن، وأخذت لوسيل تنتقل في خفة ورشاقة من جمعٍ إلى جمع، مضطربة عذبة، بل أخذت تُثني على ذوق كلير سانتريه لثوبها الجميل، وكلير مشدوهة من الدهشة، وكان شارل يتابعها بنظرات مندهشة، حائرًا، وكان يقرر أن يأخذها لينصرفا حين جاءت ديانا لتأخذه من ذراعه:

– شارل، إنها أول قبلة جميلة في الربيع، سوف نرقص، لا أحد يريد النوم، وأظن أن لوسيل أقلنا رغبة في النوم.

وتابعت ديانا لوسيل بنظرة رقيقةٍ متسلية؛ فاطمأن شارل فجأة، وهو الذي يعرف مدى غيرة ديانا، وهو الذي رآها تصحب لوسيل منذ لحظات، لا شك أن لوسيل نسيت أنطوان، وكأن الحفل أصبح احتفالًا بالسلام الذي تقترحه ديانا، وقبل شارل اقتراح ديانا، وتواعدا على الانتقال إلى علبة ليل، ووصل شارل ولوسيل في المقدمة، ورقصا معًا، وأخذا يتحدثان، لأن لوسيل كانت كطائر ثرثار، ووقفت فجأة، فقد رأت على الباب رجلًا طويل القامة.. أطول من الآخرين يلبس بذلة زرقاء غامقة، وعيناه صفراوان. كانت تعرف

عن ظهر قلب وجه هذا الرجل، وكل ندبة تحت هذه البذلة الزرقاء الغامقة، وكانت تعرف منحنيات كتفيه، اتجه نحوهما وجلس، كانت ديانا في الدور الأسفل تعيد طلاء وجهها، ودعاها أنطوان إلى الرقص، لكن طريقة ضغط يده على يدها، ووضع يده الأخرى على ظهرها، وتلك المسافة الغريبة الواسعة التي كانت تفصل خدها عن خده، كأنها نفس المسافة التي تفصل رغبتين، كانت تشعرها بالحرج، حتى إنها تظاهرت بشيء من الملل، وكأنها تريد خداع الجمهور الذي لم يكن في الحق يراها.

هذه هي المرة الأولى التي ترقص فيها مع أنطوان على أغنية عاطفية متأججة من التي يعرفونها هذا الربيع في كل مكان، وصحبها إلى المائدة.

وكانت ديانا قد عادت؛ فرقصت مع شارل، وجلس أنطوان ولوسيل على الأريكة متباعدين.

كان الغضب يتملكه؛ قال:

– هل تسليت جيدًا؟

وقالت لوسيل مندهشة:

– نعم، بالطبع، وأنت؟

قال:

– مطلقًا، إنني لا أتسلى بمثل هذه الاجتماعات، وعلى عكسك تمامًا، إنني أمقت هذه المواقف المزيفة.

والحقيقة أنه لم يستطع الحديث إلى لوسيل في هذه الليلة، كان يرغبها،

وكان مجرد الخاطر أنها سوف تذهب بعد دقائق مع شارل يصيبه في بطنه بالداء، لقد أصابته نوبة من نوبات الفضيلة والاقتصار، كتلك النوبات التي تصيب من يرغب في شيء ولا يحصل عليه، وقال لها:

– لقد خلقت لهذا النوع من الحياة..

– وأنت؟

– لا، هناك من الرجال من يوزعون فحولتهم بين امرأتين؛ أما أنا فرجولتي تمنعني من أن أجعلهن يتعذبن وأنا متمتع.

– لو أنك رأيت نفسك وأنت في غرفة ديانا لرأيت كيف يكون الاضطراب.. وأخذت لوسيل تضحك.

وقال أنطوان في صوت كظيم:

– لا تضحكي، بعد عشر دقائق ستكونين في أحضان شارل أو ستكونين وحدك، ستكونين بعيدة عني.

– ولكن غدًا...

وقال:

– كفاني من هذا "الغد"، عليك أن تضعي هذا جيدًا في رأسك.

وسكتت لوسيل.

حاولت أن تبدو حادة، ولكنها لم تستطع.

لقد جعلتها الخمر متوهجة.

وجاء شاب صغير يدعوها للرقص، فطرده أنطوان بصوت جاف، وغضبت منه، كان يمكن أن ترقص عن رضا، وأن تتحدث، أو حتى تهرب مع ثالث، إنها لا تحس بالارتباط بشيء سوى بالرغبة في أن تتسلى.

وقالت شاكيةً:

– لقد شربت كثيرًا.

وقال أنطوان:

– هذا يبدو واضحًا. وقالت:

– كنت تستطيع على الأقل أن تفعل مثلما فعلت، لكنك غير مسلٍّ.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتشابكان فيها.

وألقت بنظرة خاطفة على وجهه الطفولي الغاضب، ورقت لحالته:

– أنطوان.. إنك تعرف جيدًا...

– نعم.. نعم.. أنك تحبينني إلى الأبد.. ونهض من مكانه.

وعادت ديانا إلى المائدة، وكان التعب واضحًا على شارل.

وألقى بنظرة متشفعة تجاه لوسيل، ورجا ديانا أن تعذرهما؛ فعليه أن ينهض مبكرًا غدًا، وهذا المكان صاخبٌ جدًا بالنسبة له.

ولم تحتجَّ لوسيل، وتبعته، ولكنها في السيارة أحست لأول مرة أنها أصبحت سجينة.

الفصل الثاني عشر

قصدت ديانا الحمام لتزيل المساحيق عن وجهها، وأدار أنطوان "البيك أب"، وجلس على الأرض، ليسمع دون أن ينصت إلى كونشرتو لبتهوفن، وكانت ديانا تراه في المرآة وتبتسم، فأنطوان يجلس أمام "البيك آب" دائمًا كأنه يجلس أمام تمثال إله أو أمام نار مدفئة، كان يمكن أن تقول له إن الصوت يأتي من مكبرات الصوت الحساسة والتي وضعت في كل ركن من أركان الغرفة، وإنها ترسل كل الدقات إلى الوسط تمامًا، فوق سريره، ولكنه كان يفضل البقاء أمام "البيك آب" كأنه يعشق دوران الأسطوانة السوداء.

كانت ديانا تمسح بعناية مساحيق النهار، لتضع مساحيق الليل التي تخفي الغضون، ولا تعمِّقها، ولم تعد تستطيع أن تدع جلدها يتنفس (كما تنصح المجلات النسائية) ،كما لم تستطع أن تترك قلبها يتنفس، لا وقت.. إنها تعتبر جمالها ضروريًا لتحتفظ بأنطوان، ولهذا لم تعد تعبأ بمستقبل جلدها الذي لا يهم.

هناك من الطبائع أكثرها ثراءً على أي حال، لا تهتم إلا بالرذائل ثم تحرق الباقي، وكان طبع ديانا من بين هؤلاء.

كان أنطوان مشدودًا، يستمع إلى بعض الأصوات الخافتة في الحمام، كان يسمع صوت تمزق أوراق "الكلينيكس" وصوت فرشاة الشعر؛ فكانت هذه الأصوات تغطي الكمان والآلات النحاسية التي تعزف في الكونشرتو، كان عليه بعد خمس دقائق أن ينهض ليخلع ملابسه، ويندس في هذه

الملايات الأنيقة جوار هذه المرأة المعتنية بنفسها في هذه الغرفة الجميلة؛ لكنه يشتاق إلى لوسيل، ولوسيل تأتي إليه وتستمتع على ذلك السرير الذي يشبه الأريكة والذي تملكه صاحبة البيت، لوسيل تخلع ملابسها بسرعة، وهي تختفي بسرعة، إنها ضيفته وسارقته التي لا يمكن إمساكها، إنها لم تستقرَّ ولن تستقرَّ، وسيصحو فلا يجدها إلى جواره، ستظل دائمًا عابرة طريق، وأحس أنه أضاع ليلته، وأحس بحلقه يجف، أحس بيأس المراهقين.

وأقبلت ديانا نحوه في ثوبها الأزرق، نظرت لحظةً إلى ظهره الذي أداره لها، وإلى رقبته الممدودة الشقراء التي تخشى أن تصدها، كانت متعبة، فقد شربت كثيرًا على غير المعتاد، وكان مزاجها معتدلًا، كانت ترغب أن يحدثها أنطوان، وأن يضحك معها، وأن يحكي لها طفولته دون تحفظ. كانت تجهل أن ما يستبد به بالذات هو هذا "التحفظ"، هذا الالتزام الأخلاقي في أن يطارحها الغرام، والتي يظن –ظالمًا– أنها لا تستطيع أن ترغب في شيء آخر غير هذا الغرام.

وحين جلست بالقرب منه، ووضعت بلطف ذراعها تحت ذراعه خطر له أن يقول لنفسه بشيء من الخشونة التي لم يعتدها: "نعم، دقيقة واحدة"، ذلك لأنه حتى في أشنع علاقاته، كان يحفظ قدرًا من الاحترام للحب، ويبقى لحظة من استجماع نفسه قبل أن يضع يده على شخص.

قالت ديانا:

– إنني أحب هذا الكونشرتو.

وقال أنطوان:

- إنه رائع.

قال بلهجة مهذبة، كأنه مصطاف يعترضه غريب على البلاج ليقول له ما أروع البحر الأبيض المتوسط!

- كانت السهرة ناجحةً جدًا، أليس كذلك؟

وقال أنطوان:

- حفلة صواريخ.

وتمدد على السجادة، وأقفل عينيه.

كان يبدو هائلًا، ولم يشعر بالوحدة كما كان يشعر الآن.

كان يسمع صوته ونطقه الساخر والشرير.

كان يزدري نفسه.

وظلت ديانا بلا حراك "جميلة، عجوزًا، تفوح منها المساحيق".

أين قرأ هذا التعبير؟ في يوميات بيديس.

- هل أحسست بكثير من الملل؟

ونهضت ديانا لتمشي في الغرفة، لتعيد ترتيب زهرة في فازة، وأخذت تربت بيدها على قطعة من الأثاث.

وأخذ يراقبها من بين جفنيه.

إنها تعشق الأشياء، هذه الأشياء التي لا قيمة لها، إنه جزء من هذه الأشياء، إنه قطعة نادرة من قطعها الأنيقة، إنه شابٌّ تنفق عليه.

لا، ليس تمامًا، لكنه "يتعشى عند أصدقائها، وينام في شقتها"، ويعيش حياتها.

فكيف يصدر حكمه القاسي على لوسيل.

إنها على الأقل امرأة.

– إنك لا تجيب، هل أحسست بالملل من السهرة؟

صوتها.. أسئلتها.. ثوبها.. عطرها.. لم يعد يستطيع الاحتمال.

وانقلب على بطنه، ووضع رأسه بين ذراعيه.

وجلست القرفصاء إلى جانبه:

– أنطوان، أنطوان..

تنبه إلى الوحشة في صوتها، وحشة وحنان جعلاه يفيق من غفوته، فانقلب إليها.

كانت عيناها تلمعان بالبريق، وتبادلا النظر.. ثم جذبها إليه.

وأبدت حركة مضطربة، تدل على الخوف، لتتمدد إلى جواره، وكأنها كانت تخشى أن تنكسر، أو كأنها مصابة بالروماتيزم.

ولما كان لا يستطيع أن يحبها، فقد اشتهاها.. على الأقل.

وسافر شارل إلى نيويورك، بمفرده، واختصر رحلته إلى أربعة أيام.

وأخذت لوسيل تتنزه في شوارع باريس الزرقاء في سيارتها المكشوفة.

كانت تنتظر الصيف، وكانت تتعرف عليه في كل عطر يفوح، وفي كل

انعكاس يرتمي على صفحة السين، واستشعرت رائحة الغبار والشجر والأرض التي سوف تهب قريبًا على شارع سان جرمان، وأشجار الفرو الشاهقة التي تعلو إلى السماء الوردية في الليل، تكاد تغطي السماء، وتلك المصابيح التي تضاء قبل مجيء الليل بوقت طويل، وأحست بإهانة دورها المهني؛ لأنها كانت تلعب دورًا هامًا في أثناء الشتاء؛ لتقود المارة، ولكنها في الصيف تكاد لا تكون لها فائدة، تلك المصابيح التي يهجم عليها يوم لم يهبط نوره بعد، وفجر تحس بشوقه في السماء؛ لينثر ضوءه.

وفي مسائها الأول، تمشت في سان جرمان دي بريه، وقابلت بعض أصدقائها في الكلية، وأصدقاء ما بعد الكلية، وكانوا يحيونها بصيحات كأنها "عائدة"، أحست بالفعل أنها عائدة، ولا تكاد تتبادل معهم بعض الفكاهات، أو تستعيد بعض الذكريات حتى تحس أنهم واقعون وسط مشاكل العمل، أو الضائقة المالية، أو مشاكل الصديقات، وكان عدم اكتراثها يبدو لهم مثيرًا للقلق، بدلًا من أن يخفف عنهم، ذلك أن اجتياز حاجز المال يشبه اجتياز حاجز الصوت، وبذلك فكل كلامها كان لا يصيب هدفه، بل ويأتي متأخرًا.

ورفضت لوسيل تناول العشاء معهم في ذلك المقهى الظريف في شارع "كوجا"، وعادت إلى بيتها في الثامنة والنصف، تحس بشيء من الكآبة، وأعدت لها بولين "بوفتيكً"، وتمددت لوسيل على السرير والشباك مفتوحٌ تمامًا.

كان النهار يتناقص بسرعة على السجادة، والضجة في الشارع تتناقص، وتذكرت أن النسمة أيقظتها من نومها منذ شهرين، لم تكن النسمة خامدة

ثابتة كتلك الرياح، لكنها كانت نسمة سريعة نشيطة اضطرتها إلى الصحو، كما أن هذه النسمة تدفعها إلى النوم، وبين النسمتين كان أنطوان والحياة، سوف تتعشى معه غدًا وحيدين، وأحست بالاضطراب، أصبحت تخاف من أن يصيب شريكها الملل منها، بعد أن كانت على العكس، كل مشكلتها هي الإحساس بالملل من الآخرين، لكنها كانت في نفس الوقت تحس أن الحياة أغدقت عليها، وأحست بالعذوبة وهي تتمدد فوق سريرها، وقد أخذ الظل يحيط بها، وأصبحت توافق على أن الأرض كروية، وأن الحياة معقدة، وأنه لن يحدث لها أي شيء.

وهناك من لحظات السعادة الكاملة التي يحسها الإنسان في وحدته أحيانًا ما ينقذ الإنسان من اليأس، السعادة مع الوحدة أكثر من أي شيء يأتي من الخارج؛ لأن الإنسان يدرك أنه سعيد، ووحيد، بلا سبب واضح، ويعلم أن ذلك ممكن، إن تلك السعادة التي يتخيل الإنسان أنها مرتبطة بإنسان آخر بسبب تعاسته مرتبطة بلا أدنى أمل في الفكاك منها، كأن الارتباط عضوي، تلك السعادة تبدو من جديد كأنها شيء ناعم، مستدير، لم يلمسه أحد، شيء حر إلى الأبد، يضع نفسه تحت تصرفك (شيء بعيد بالطبع، لكنه ممكن)، إن ذكرى هذه السعادة بمفردك، تصبح أكثر طمأنينة من تلك السعادة التي كنت تتقاسمها مع شخص آخر ثم أصبحت لاغية، فتبدو هذه السعادة خطأً، وتبدو ذكراها على غير أساس.

كان عليها أن تمر على أنطوان في السادسة غدًا، سوف يركبان عربة لوسيل، ويتعشيان في الريف، سيكون الليل كله ملكهما، ستنام مبتسمة.

كان الحصى يخشخش تحت أقدام الصبية، والوطاويط تحوم حول المصابيح على التراس، ورجل وامرأة يبتلعان "أومليت" ساخنًا على المائدة القريبة.

كانا يجلسان على بعد خمسة عشر كيلومترًا من باريس، وفي الجو لسعة برودة، فوضعت صاحبة المحل شالًا على كتف لوسيل، كان المكان واحدًا من آلاف الفنادق الصغيرة التي تتيح شيئًا قليلًا أو كثيرًا من السرية والهواء الطلق لباريسيين مجهدين أو زانيين، كان الهواء يداعب شعر أنطوان، كان يضحك، وكانت لوسيل تحكي له طفولتها، طفولة سعيدة.

– "وكان أبي يعمل موثقًا، وكان يعشق لافونتين".

وكان يتنزه على نهر "الأندر" وهو يروي حكايات لافونتين؛ لقد حاول بعد ذلك أن يكتب حكايات على غرار لافونتين، مع تغيير الأدوار، وأنا متأكدة أنني واحدة من الفرنسيات النادرات اللائي يعرفن عن ظهر قلب قصة "الخروف والغراب"، إنك محظوظ.

وقال أنطوان:

– نعم محظوظ، وأعرف ذلك، استمري.

– مات وأنا في الثانية عشرة، ومرض أخي بالشلل.

ولا يزال قعيدًا، وقد انتابت أمي عاطفةٌ مشبوبةٌ تجاهه؛ فهي لا تتركه، كادت تنساني على ما أظن، وسكتت..

حين وصلت إلى باريس كانت ترسل بصعوبة بعض المال إلى أمها كل

شهر، ومنذ عامين يتولى شارل هذه المهمة عنها، ولا يحدثها مطلقًا عما يرسله.

وقال أنطوان:

– إن والديَّ لا يحب أحدهما الآخر، ولكنهما لم ينفصلا حتى يحافظا على بيت لي، وأنا كنت أحب أن يكون لي بيتان، وابتسم، ومد يده على المائدة، وأمسك يد لوسيل.

– هل تلاحظين أن أمامنا كل المساء وكل الليلة.

– ستعود إلى باريس في بطء شديد، بعد أن تعيد غطاء السيارة عليك أن تسير ببطء، لأن الجو بارد، وسأشعل لك سجائرك حتى لا تترك العجلة.

– سنسير في هدوء، بسببك سنذهب للرقص، وسنعود معًا لتعرفي في الصباح إذا كنت سأتناول القهوة أو الشاي، وكم قطعة من السكر.

– نرقص؟ إننا سنقابل كل من يعرفوننا.

وقال أنطوان بجفاء:

– ثم ماذا؟ أتظنين أنني سأمضي حياتي في الخفاء؟

لم تجب، وأخفضت عينيها.

وقال أنطوان بهدوء:

– عليكِ أن تتخذي قرارك، ليس الليلة، لا تخافي.

ورفعت رأسها، كأنها تخلصت من شيء، ولم تستطع التوقف عن الضحك:

– إنني أعلم أن أقل تأجيل يطربك، إنكِ لا تعيشين إلا للحظتك، أليس كذلك؟ ولم تجب.

لقد كانت على صفاء معه، وعلى طبيعتها، وكان يجعلها تضحك وتتكلم وتطارحه الغرام، كان يقدم لها كل هذا، وكان هذا يخيفها.

وتيقظت مبكرة في اليوم التالي، وفتحت عينين تائهتين على غرفة مضطربة، وعلى ذراع طويلة مغطاة بشعر أشقر لا تستطيع الإفلات منها، ثم أقفلت عينيها وانقلبت على بطنها وابتسمت.

كانت بالقرب من أنطوان، وعرفت ماذا يعني هذا التعبير الذي يقال: "قضاء ليلة غرامية".

لقد ذهبت لترقص معه، وعادت معه، وتكلما معًا، وتطارحا الغرام، ودخنا وطارحته الغرام حتى غطاهما الصباح، وقد أسكرتهما الكلمات والحركات، وغاصا في ذلك السلام الذي يعقب التعب.

كانا يظنان أنهما سيموتان تلك الليلة، وجاءهما النوم كقطعة الخشب العائمة التي ارتقياها بصعوبة شديدة، وتمددا عليها، وأغمى عليهما، وكانت يداهما تتلامسان، كدليل أخير على التواطؤ.

ونظرت إلى وجه أنطوان ورقبته وذقنه التي بدأت تظهر، والخط الأزرق الذي ظهر تحت عينيه، وبدا لها أنها لا تستطيع أن تتصور الصحو في مكان آخر غير الصحو إلى جانبه.

أحبت فيه أنه في الصباح حالم لا يهتم، وفي الليل قوي دقيق.

كأن الحب أيقظ فيه كافرًا لا يعبأ، ليس له قانون سوى المتعة.

وحول رأسه ناحيتها، وفتح عينيه، ونظر إليها نظرة الوليد التي تتراوح بين الدهشة والتردد، تلك النظرة التي يتميز بها الرجال عندما يتيقظون في الصباح.

تعرف عليها وابتسم وانقلب ناحيتها.

كان رأسه ثقيلًا ساخنًا من النوم على كتف لوسيل التي كانت تنظر وهي تبتسم إلى قدميه اللتين ظهرتا من الغطاء الملفوف.

تنهد وتمتم بشيء ما بصوت شاكٍ.

وقالت:

– عيناك رائعتان في الصباح، تشبهان البيرة.

– أي شاعرة.

ونهض فجأة، ليمسك بوجه لوسيل.

– عيناك تكادان تكونان زرقاوين.

– لا. أنهما رماديتان خضراوان.

– مغرورة.

كانا وجهًا لوجه على السرير، كان يمسك وجهها، وكانا يبتسمان.

كان كتفاه عريضين بارزي العظام، وهربت من يده، ووضعت رأسها على صدره.

سمعت قلبه يدق سريعًا سريعًا مثل قلبها.

قالت:

– قلبك يدق بقوة، من التعب؟

قال أنطوان:

– لا. إنها الخفقات.

– ما معنى الخفقات في الأصل؟

– عليكِ بالقاموس، ليس لدي وقت لأشرح لك.

ومددها برقة على السرير، وكان النهار في الخارج قد اكتمل.

وفي الظهيرة، اتصل أنطوان بمكتبه تليفونيًا، وقال إن حرارته مرتفعة، وإنه سيذهب بعد الظهر.

– أعلم أن هذا يشبه شغل التلاميذ، ولكنني لا أريد أن أطرد.

– مورد رزقي كما يقال.

وقالت لوسيل غير مهتمة:

– هل تكسب كثيرا؟

وقال بنفس اللهجة:

– قليلًا جدًا. هل هذا مهم؟

قالت ضاحكة:

– لا، لكنني أظن أن النقود مريحة، هذا كل شيء.

– مريحة إلى حد يجعلها مهمة؟

نظرت إليه في دهشة.

– ولماذا كل هذه الأسئلة؟

– لأنني أريد الحياة معك، أي أقصد إعالتك..

وقاطعته لوسيل:

– معذرة.. إنني أستطيع كسب قوتي، لقد اشتغلت عامًا في "آبيل"، جريدة توقفت الآن،

كان العمل مسليًا، لكن جميع من كانوا يعملون كانوا جادين بشكل مرعب، وكانت تبدو عليهم ملامح الوعظ.. و..

ووضع أنطوان يده على فمها:

– هل سمعتيني جيدًا، إنني أريد الحياة معكِ، أو لا أريد أن أراكِ بعد الآن، إنني أعيش هنا وأكسب قليلًا من المال، ولا أستطيع أن أجعلك تعيشين نفس الحياة التي تعيشينها الآن، هل تفهميني؟

قالت في ضعف:

– لكن شارل؟

قال أنطوان:

– إما شارل، وإما أنا، سيعود غدًا، أليس كذلك؟ غدًا مساءًا، تأتين إلى الأبد أو لا نتقابل مطلقًا، هكذا..

ونهض ليذهب إلى الحمام.

وأخذت لوسيل تقرض أظافرها، تحاول أن تفكر بلا جدوى، وتمددت وأقفلت عينيها.

كان لابد أن يحدث هذا الذي حدث، كانت تعلم ذلك، أن الرجال متعبون.

إن عليها أن تتخذ قرارها من الآن حتى بعد غد، وكانت كلمة "القرار" هذه هي إحدى كلمات الفرنسية التي تصيبها بالفزع.

الفصل الثالث عشر

شمس باردة تنعكس في مرايا مطار أورلي، وعلى ظهور الطائرات اللامعة، وعلى جوانب المطار في لمعان رمادي يبهر العين، وكانت طائرة شارل قد تأخرت ساعتين، ولوسيل تتجول وهي ضائعة وسط الصالة الواسعة، إذا حدث مكروه لشارل لن تستطيع احتمال ذلك، سيكون ذلك خطأها لأنها لم ترض بالسفر معه، ولأنها خانته، وتحول ذلك الوجه الحزين المصمم الذي كانت تحمله منذ ساعتين، وكانت قد صممت على أن تُخطِر شارل بأن شيئًا ما لا يسير على ما يرام تحول إلى وجه مفعم بالقلق والحنان.

هذا هو الوجه الذي رآه حين عبر الجمرك، وابتسم لها ابتسامة حارة مطمئنة، جعلت الدموع تتدفق في عينيها، واتجه إليها، وقبلها بحنان، وأبقاها قليلًا إلى جانبه، ورأت لوسيل امرأة لعينة تنظر إليها نظرة الحسد.

إنها تنسى دائمًا أن شارل رجل جميل، وأن حنانه لا يعطيه لغيرها، كان يحبها بما فيها، ولا يطلب منها الحساب، ولا يطالبها بشيء، وأحست بقليل من اللوم تجاه أنطوان، من السهل أن يتحدث الإنسان عن الانفصال، إذا كان يمكن الحياة مع إنسان لمدة عامين دون أن يرتبط به، وتناولت يد شارل وأبقتها، كأنها أحست أن واجبها أن تدافع عنه، ولم تتذكر أن عليها أن تدافع عنه ضد نفسها.

قال شارل:

– أحسست بملل فظيع من غيرك.

وابتسم، وأنقد الشيال، وأشار إلى حقائبه للسائق بتساهله المعتاد.

لم تدرك منذ وقت طويل كم إن كل شيء معه سهل ويسير.

وفتح لها باب السيارة، ودار حول السيارة، وجلس إلى جوارها، وأمسك يدها في شيء من الخجل، وقال: "إلى البيت" بصوت الفرح الذي يطلقه رجل يعود إلى داره.

وأحست بأنها وقعت في كمين.

– ولماذا ضقت بي... وماذا أيضًا؟

كان صوتها يائسًا، لكن شارل ابتسم لها، كان يتصور أنها تتدلل:

– إنني أجدكِ في غاية الاكتمال، وأنتِ تعرفين ذلك.

قالت:

– إنني لا أستحق ذلك.

– فكرة الاستحقاق في العواطف.. لا أوافق عليها.. لقد أحضرت لكِ هدية جميلة جدًا من نيويورك.

– ما هي؟

لم يشأ أن يقول لها، وألحت، لم يرض حتى وصل إلى البيت.

وعلت صيحة الراحة من بولين حين رأتهما، لأنها تظن أن كل رحلة جوية تنتهي إلى الموت لا محالة، وأخذا يفتحان حقائب شارل معًا.

لقد أحضر لها معطفًا من الفيزون الرمادي الفاتح في نفس لون عينيها، وأخذ يضحك كطفلٍ وهي تعسة.

وبعد الظهر، اتصلت بأنطوان، وقالت إنها لابد أن تراه، وإنها لم تجد الشجاعة للحديث مع شارل.

وأقفل السماعة قائلًا:

– لن أراكِ قبل ذلك.

كان صوته غريبًا، وظلت أربعة أيام لا تراه، ولم تحس بالعذاب من شدة الغضب، كانت تنعي عليه أنه أقفل السماعة بقسوة، وهي تكره كل أنواع الغلظة، لكنها كانت على يقين –أو تكاد– أنه سوف يتصل بها.

لقد ارتبطا في تلك الليلة، وأوغلا بعيدًا في الحب، فأصبحا خادمين لنفس الطقوس، وقد أصبح كل شيء خارجًا عنهما، ليس بأيديهما، ومهمة كانت نزوة كل منهما، قد تكون روح أنطوان معادية الآن، ولكن جسده أصبح صديقًا لجسدها، أصبح يحتاج للاكتمال بها، وأصبح يندم على غيابها، كان العكس يبدو لها مستحيلًا، كانت تنعي عليه خاصة أنه لم يتركها تشرح له الأمر، كانت تستطيع أن تخبره عن تأخر الطائرة وعن قلقها، وتثبت له حسن نيتها.

كان يمكن بلا شك أن تتخذ قرارها وتعلنه لشارل في المساء، لكنها عانت مشقة كبيرة في اتخاذ قرارها، وحاولت أن تضع نفسها في موقف الانفصال، ولكنها كانت تخشى ألا تستطيع ذلك، ولم يتصل بها أنطوان، وأحست بالضيق والملل.

وأتى الصيف، وأصبحت الحفلات تقام في الهواء الطلق، وصحبها شارل إلى عشاء في "بري كاتلان"، كان أنطوان مع ديانا وسط جمع صاخب تحت شجرة، وسمعت لوسيل ضحكة أنطوان قبل أن تراه، وفكرت بسرعة شديدة:

"ها، إنه يضحك ولست معه".

ولكن حركة من البهجة جذبتها إليه، ومدت إليه يدها مبتسمة، ولكنه لم يرد عليها ابتسامتها، وانحنى بسرعة ثم أدار ظهره.

وأصبح المكان الذي كان مضاءًا أخضر مظلمًا أسود، ورأت تفاهة الناس، والملل الموحش في هذا المكان، وهذا الوسط وهذه الحياة كلها لولا أنطوان وعيناه الذهبيتان وغرفته وتلك الساعات الصادقة التي تقضيها معه ثلاث مرات في الأسبوع، لأصبح كل شيء في هذا العالم الصاخب المضطرب مجرد ابتكار فظيع لديكوريست غير موهوب.

وجدت كلير سنتريه مرعبة وجوني سخيفًا، وديانا نصف ميتة وتقهقرت خطواتها.

وصاحب ديانا بصوتها الآمر:

– لوسيل، لا تهربي هكذا، إن ثوبك رائع.

أصبحت ديانا تحب الآن إغراق لوسيل في الملاطفة، كانت تظن أن هذا هو السبيل لتزداد طمأنينة، لكن ذلك جعل جوني يبتسم وخاصة كلير، التي اعترف لها جوني "بكل شيء يعرفه"، لا شك أن المحيط الصغير أحيط علمًا في هذه اللحظة بالذات، وكان أنطوان ولوسيل يقفان حائرين باهتين معذبين،

الواحد بقرب الآخر، بينما كانت النظرات التي ترمقهما بين الحسد والسخرية، تلك النظرات التي يخصون بها العشاق الجدد.

وأعربت لوسيل:

– ثوبي هذا منذ أمس، وأخشى أن يصبح الجو باردًا.

وقال جوني:

يصعب الإصابة بالبرد بمثل هذا الثوب، ويسهل بثوب كوكودوريد، إنني لم أرد مثل هذا القدر الصغير من القماش يكسر مثل هذا القدر الكبير من المساحة.

بل لقد قالت لي إنها تغسل هذا الفستان كما تغسل المنديل وأظن أنه يستغرق وقتًا أقل.

ونظرت لوسيل تجاه كوكودوريد التي كانت في الحق نصف عارية تتبختر تحت الأضواء،

كانت رائحة الأرض المبتلة رائحة عميقة ممتعة تصعد من غابة بولونيا.

قال شارل:

– لا يبدو عليك الابتهاج يا صغيرتي.

ولمعت عيونهما، كانت يده فوق ذراع جوني الذي كان يرمقها بنظرة هو الآخر، وانتبهت ديانا لصمتها، فنظرت إليها.

وقالت لوسيل في نفسها: "إنهم كلاب، كلاب، سيمزقونني إرباً بفضولهم".

وضحكت بضعف:

- أحس بالبرد، سأطلب معطفي من شارل.

وقال جوني:

- سأحضره أنا، إن الفتى الذي يحفظ المعاطف رائع.

وعاد وهو يجري.

ولم تعد لوسيل تنظر إلى أنطوان منذ وصوله، كانت تراه من جانبه كما يرى الإنسان الطيور وهي تطير.

وقالت كلير:

- ولكنه معطف جديد، إنه رائع، رمادي باستيل، لم أره من قبل.

قالت:

- أحضره لي شارل من نيويورك.

وفي هذه اللحظة التقت بنظر أنطوان، وما فهمته من نظرته جعلها تحس بالرغبة في أن تصفعه، ودارت فجأة نصف دورة، ثم ابتعدت.

قالت كلير:

- إن الفيزون كان يجعلني أكثر بهجة في شبابي.

ولكن ديانا قطبت جبينها، وبدا على أنطوان ملامح الأعمى، كما كانت ديانا تقول:

لا تتحرك والوجه فارغ.

قالت:

- أحضر لي كأسا من الويسكي.

لم تستطع ديانا أن تسأله ما الذي حدث، فاضطرت أن تأمره، وعزاها ذلك بعض الشيء.

لم يقتربا خطوة واحدة طوال الليل، ولكنهما في نهاية السهرة وكانا على طرفي إحدى الموائد، لأن الجميع ذهبوا للرقص.

لم يكن يستطيع ألا يذهب إليها، ولم يستطع إلا أن تكون جانبه كان الذي عاناه طوال يومين يحطمه تمامًا.

كان يتخيلها بين ذراعي شارل، وهو يقول لها ما تقوله هي له.

كان يتخيلها بوجه صريح، ومع ذلك يكتم سرًا قويًا، وجهًا صريحًا كتومًا، منحته له من قبل، فأصبح عنده كل طموحه، كان يموت من الغيرة.

ودار حول المائدة، وجلس إلى جوارها.

لم تنظر إليه، وفجأة، تحطم، ومال إلى الأمام.

مستحيل، ولا يمكن احتمال هذه الغريبة التائهة، التي كانت عارية جواره منذ أسبوع في ضوء النهار.

قال:

– لوسيل، ماذا تفعلين بنا؟

قالت:

– وأنت؟

أصابتك نزوة، ولابد أن أنهي كل شيء في أربع وعشرين ساعة، هذا مستحيل.

أحست باليأس والهدوء والفراغ، وقال بصوت متهدج:

– إنها ليست نزوة، إنني أغار، لا أستطيع في ذلك شيئًا، لا أحتمل الكذب، إن هذا يقتلني، أؤكد لك.. أن.. أن.

ومسح وجهه بيده، وقال:

– قولي، منذ عاد شارل، هل.. هل..

– هل نمت معه؟ طبعًا لقد أحضر لي معطفًا من الفيزون، أليس كذلك؟

قال:

– إنك لا تعرفين ما تقولين.

– لا، ولكنك تعرف، لقد رأيته على وجهك منذ لحظة، إنني أكرهك لذلك.

وعاد بعضهم، فنهض أنطوان بسرعة.

وقال:

- تعالَي نرقص، لابد أن أكلمك.

قالت:

- لا، إن ما قلته صحيح، أليس كذلك؟

- يجوز.. وقد يثير هذا ردودًا فظيعة.

- لكنني لا أريد ردودًا فظة.

واستدارت عنه.

وفكر في نفسه: "إنها تحملني الخطأ، إنها تخونني، وتحملني الخطأ"، واستولت عليه موجة من الغضب، فأمسك بيدها، وجذبها بشدة، حتى إن بعض الرؤوس تحولت إليه.

- تعالَي نرقص.

وقاومت.. امتلأت عيناها بدموع الغضب والألم.

- لا أرغب في الرقص.

وأحس أنطوان أنه سجين نفسه، لا يستطيع تركها ولا يستطيع إرغامها.

وفي نفس الوقت روَّعته دموعها، وقال في نفسه سريعا: "لم أرها وهي تبكي، لكم أود لو بكت على صدري لحزن قديم من أحزان الطفولة؛ فأواسيها".

وقالت بصوت خفيض:

- دعني يا أنطوان.

الفصل الرابع عشر

كانت السماء تمطر في الخارج، وكانت قطرات المطر تتكسر على الطريق، مطر من أمطار الصيف المجنون الرطب، كأنه من فعل بستاني مجنون، وكان الصباح قد اندس في السجادة، وهي راقدة على سريرها، ولكنها لا تستطيع النوم.

كان قلبها يضطرب، وتحس به يخفق، فيدفع الدم بضغطات مجنونة في كل أطراف جسمها، وأحست بالثقل في أطراف أصابعها، وكاد الدم يندفع من أصابعها متفجرًا، ولم تستطع أن تهدئ من روعها، منذ ساعتين وهي فريسة الإشفاق واليأس، بعد أن عادت من المطعم؛ فمنذ عادت من "بري كاتلان"، وبعد أن لاحظت اختفاء "أنطوان" وشحوب "ديانا" والبهجة التي عمت المطعم بين الحاضرين لهذه الفضيحة الصغيرة، وخففت من حدة غضبها، ولم تدر حتى ما الذي دفعها إلى الغضب، إن نظرة أنطوان منذ حادث المعطف، وكانت وقحة متهجمة، كانت تعني أنها حقيرة؛ ولكن أليست هكذا بشكل ما؟

إنها تعيش على حساب شارل، وتقبل هداياه ممتنة وإن كانت تسعد بمجرد الرغبة في الإهداء أكثر من اهتمامها بثمن الهدية، ولكنها على أي حال تقبلها، وهي لا تستطيع أن تنكر ذلك، وهي لا تفكر في ذلك، طالما أنها تظن أنه من الطبيعي أن ينفق عليها رجل يستطيع الإنفاق، رجل تحفظ له عاطفة التقدير.

إن أنطوان أخطأ في ظنه، لقد حسب أنها تقيم مع شارل لهذا السبب، وأنها هجرته هو لهذا السبب أيضًا، وظن أنها قادرة على مثل هذا النوع من المحاسبات، وقد حكم عليها، وأدانها واحتقرها، وكانت تعلم أن الغيرة يمكن أن تؤدي إلى مثل هذه التبريرات والأعمال والأحكام الدنيئة، ولكنها لا تستطيع أن تحتمل ذلك من أنطوان بالذات حتى ولو كانت الغيرة تقتله، كانت تؤمن به، وتؤمن بأن شيئًا يشبه القرابة يربطهما، وشيئًا أقرب إلى الخيانة الأخلاقية المشتركة، ولكنه يظن أنها بخطئها قد غدرت به؛ فماذا تستطيع أن تقول له؟ صحيح أن شارل قد أهداني هذا المعطف، وأن الهدية قد أسعدتني، وصحيح أنني شاركته مرقده منذ عودته، كما يحدث بيننا بين الحين والآخر، وصحيح أن هذا لا علاقة له بما حدث بيني وبينك، لأن ما يحدث بيننا هو العاطفة المجنونة، والعاطفة المجنونة لا يعادلها شيء آخر.

إن جسدي لا يتمتع بالخيال ولا الذكاء إلا مع جسدك، وعليك أن تعلم ذلك، ولكنه لم يفهم ذلك، ولا يمكن أن يفهم الرجال مثل هذا الإحساس عن المرأة على الرغم من أنه يتكرر مئات وآلاف المرات وغالبًا ما يتأكد في أغلب الأحوال، وأحست أنها وقعت في ورطة.. وأنها لا تستطيع إيقاف قلقها، هل أحدثه من علاقته بديانا، إنني لا أحس بالغيرة؛ فهل أصبحت وحشًا من أجل ذلك؟ وحتى لو كنت وحشًا؛ فهل أستطيع تغيير نفسي مطلقًا؟".

لكنها إذا لم تتغير فستفقد أنطوان، وجعلتها هذه الفكرة ترتجف.

– أن تعودي إلى سريره كما تتقلب سمكة على العشب.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحًا.

ودخل شارل غرفتها، وجلس في هدوء على السرير، وملامحه مشدودة، كان في ضوء الفجر الطازج يبدو عليه حقًا أنه في الخمسين، والروب دي شامبر مع الكوفية على طريقة الرياضيين لا تفيد شيئًا، وضع يده على كتف لوسيل، وظل ساكنًا لحظةً بلا حراك.

– ألم تنامي بعد؟

وتململت، حاولت أن تبتسم، وهمت أن تتهم الطعام في مطعم "بري كاتلان"، ولكنها لم تعد تستطيع شيئًا؛ فاكتفت بإقفال عينيها.

وقال شارل:

– لعلنا.. كان يجب.. وتوقف لحظة يتمالك صوته؛ أليس من الأفضل أن تسافري قليلًا؟ لوحدك أو معي إلى وسط فرنسا؟ إن البحر سيشفيك من كل شيء... كما تقولين لي دائمًا.

ولم تسأله عما يقصد بكلمة الشفاء، شفاء من أي شيء؟

ولم تكترث لأن سؤال شارل لم يحمل مثل هذه الإشارة.

وقالت بصوت حالم:

– وسط فرنسا.. وسط فرنسا؟

ورأت تحت جفونها التي أغلقت بعناد موج البحر ينطلق إلى البلاج، ورأت لون الرمل والماء حين تهجر الشمس البلاج، هذا هو كل ما تحبه، هذا هو ما تحتاج إليه بلا شك.

وقالت له:

– سأذهب معك حين تستطيع.

وفتحت عينيها دون أن تراه، ولكنها قلبت رأسها، ودهشت لحظة قبل أن تحس –في شيء من اللوعة– بسخونة دموعها على خدها.

لم يكن على شاطئ الكوت دازور في بداية مايو ناس كثيرون، كان كل شيء يبدو ملكها.. المطعم الوحيد المفتوح والفندق والبلاج.

وبعد ثمانية أيام، بدأ الأمل يداعب شارل من جديد، ولوسيل تقضي الساعات الطويلة تحت أشعة الشمس، تقرأ كثيرًا، وتحدثه عما تقرأ، وتبتلع السمك المشوي، وتلعب الورق مع بعض الأزواج القليلة على البلاج، كانت تبدو عليها السعادة، أو على الأقل، الرضا، ولكنها كانت تفرط في الشراب في الليل، كما كانت في إحدى الليالي متوحشة حين "تعانقا" على غير الطريقة التي كان يعهدها منها، ولم يعرف شارل أن كل هذا الذي تفعله لوسيل كان يرجع إلى شيء واحد هو الأمل في أن ترى أنطوان مرة ثانية، لقد كانت تريد أن تكسب بشرتها تلك السمرة البرونزية التي يعشقها أنطوان، وكانت تفرط في الأكل لأنه يفضل في جسدها بعض الاستدارة أكثر من الهزال، وكانت تقرأ الكتب التي تنشرها دار نشره حتى تستطيع أن تتحدث معه عنها، وكانت تشرب لأنها تريد أن تنساه، وحتى تستطيع النوم.

ولكنها لم تكن تجرؤ أن تعترف لأحد حتى لنفسها بهذا الأمل، كانت تعيش كحيوان مستسلم يكاد يتمزق قطعتين، لكن أحيانًا وفي لحظات خاطفة حين تفقد انتباهها، وتتوقف عن هذا الإقبال الجشع على اللذائذ الحسية،

وحين تنسى أن تلاحظ صفاء المياه وسخونة الشمس، كانت ذكرى أنطوان تسقط عليها كالحصى؛ فكانت تستسلم لها بمزيج من السعادة واليأس، وقد مدت ذراعيها على البلاج كأنها قد صلبت، ليس بالمسامير في بطن يديها، ولكن بشظايا الذاكرة اللعينة في وسط قلبها تمامًا، وتعجبت كيف تحس بقلبها وقد خوى من شدة الصدمة، وكيف عاد وهو خاوٍ إلى الامتلاء الفظيع، ماذا تهم هذه الشمس، وماذا يهم هذا البحر، بل وهذه البهجة الجسدية، مادام أنطوان غائبًا، لا يستطيع أن يقاسمها كل شيء.

كان يمكن أن تسبح معه، وأن تتعلق بشعره الأشقر الذي يزيد البحر من صفرة لونه، وكان يمكن أن تقبله بين موجتين، وأن تحبه وراء الشاليهات الخالية حتى الآن، على بعد خطوتين، وكان يمكن أن تظل معه طوال الليل دون أن تتحرك وهي تنظر إلى طيور البحر وهي تقفز على السقوف والوردية، إذن لأصبح الوقت شيئًا آخر غير هذا الشيء الذي تحاول أن تقتله؛ فلو أنه معها لأصبح الوقت شيئًا عزيزًا تمضغه، وتدلّله، وتمنعه من أن يمضي وينقضي.

ولم تستطع الاحتمال فقامت تائهة، واتجهت إلى البار في مكان قصي لا يستطيع شارل وهو في مقعده أن يراها فيه، وطلبت بسرعة كوكتيلًا ابتلعته جرعة واحدة، ثم كوكتيلًا ثانيًا، ولابد أن البارمان الساخر ظن أنها مدمنة مخجلة، ولكن ماذا يهم؟ لابد أنها ستنتهي إلى ذلك المصير في يوم من الأيام.

وعادت إلى الشاطئ، وتمددت بالقرب من أقدام شارل، وأقفلت عينيها، وأصبحت الشمس بيضاء شهباء، ولم تعد تستطيع أن تميز بين هذه

السخونة التي تثقل جلدها وبين تلك الحرارة التي تجري تحت جلدها، ولم تستطع أن ترى تحت جفونها سوى صورة أنطوان غائمة عاجزة عن إنزال العذاب بها، وظلت بضع ساعاتٍ كأنها نبات مهجور أو حيوان متروك، واستطاعت أن تلتقط أنفاسها قليلًا، وكانت السعادة تبدو على شارل، وكان هذا كثيرًا.

وحين رأته يسير نحوها في بنطلونه الفلانيل والفولار المطوي بعناية داخل ياقة قميصه وحذاء الموكاسان، اندفعت في ذهنها بشدة صورة أنطوان بقميصه المفتوح على صدره، ورجليه النحيلتين الطويلتين في بنطلون قديم من التوال وقدميه الحافيتين وشعره يصل إلى عينيه.

لقد عرفت عددًا غير قليل من الشبان، ولا شك أن ما تحبه فيه ليس هو الشباب بالذات،كان يمكن أن تحبه حتى ولو كان عجوزًا.

ولكنها تحبه هكذا، وهو في هذا السن وهو أشقر، وهو متطهر كما يحبها وهي شهوانية، وتحبه لأنه أحبها، وتحبه لأنه لم يعد يحبها الآن.

وهكذا كان حبها قابعًا كالجدار حائلًا بينها وبين الشمس والسهولة، بل وتذوق الحياة.

إنها تحس بالعار من أجل ذلك.

إن مذهبها الوحيد هو السعادة، ولا يمكن غفران أن ينزل الإنسان الشقاء بنفسه.

وكان هذا سببًا من أسباب سوء التفاهم بينها وبين المجتمع، "بل وسببا من أسباب العتاب المتصل".

وخطر لها وهي متفجرة:

- "إنني الآن أدفع الثمن".

وكان الضجر عميقًا حتى إنها لم تكن تؤمن بالديون، وحتى إن المخاوف الأخلاقية والاجتماعية هجمت عليها، وحتى إن الخوف العام- الذي كانت تراه عشرات المرات عند الآخرين- من أن تفسد حياتها سبب لها ارتدادًا خفيفًا كأنها تواجه مرضًا بسبب الخجل، لقد أصابها هذا المرض.

إنها تعاني..

تعاني من غير أي رغبةٍ في أن تشكو من المرض، والمرض من غير شكوى أفظع أنواع المرض.

وكان على شارل أن يعود إلى باريس؛ فصحبته إلى المحطة، ووعدته بالتعقل، وكانت رقيقة معه.

سوف يعود بعد ستة أيام، وسوف يتصل بها كل ليلة، وقد فعل ذلك.

ولكن في اليوم الخامس قرابة الساعة الرابعة، حين رفعت سماعة التليفون، سمعت صوت.. أنطوان..

وكان قد مر عليها خمسة عشر يومًا دون أن تراه.

حين خرج أنطوان من مطعم "بري.. كاتلان"، أخذ يعبر غابة بولونيا ويحدث نفسه كمجنون، وجرى وراءه سائق سيارة ديانا وعرض عليه أن

يوصله، ولكنه دهش دهشة كبيرة، حين أخرج من جيبه ورقة بخمسة آلاف فرانك وهو يدمدم:

– ليس معي سوى هذه الورقة!

وبقدر ما كان أنطوان يحس برغبة قوية في إنهاء علاقته مع ديانا كان يتخيل أنه لابد من إخطار العالم كله بذلك.

وصعد إلى شارع "جراند أرميه" بخطوات سريعة، وقال لإحدى المومسات وهي تناوشه أنه يعرف كثيراتٍ مثلها، ثم عاد على عقبيه لكي يتأسف لها، ولكنها كانت قد اختفت، ولعلها رضيت بما قاله، فأمضى نصف ساعة يبحث عنها بلا نتيجة.

ودخل أحد البارات في الشانزليزيه، وحاول أن يفقد وعيه، ثم اصطدم بسكيرٍ آخرَ بعد حديث قصير في السياسة، والسبب أن الشقي كان يحتل بعناد "الجوك موكس"، وأن أنطوان كان قد قرر أن يدير عشرين مرة تلك الأسطوانة التي كان يرقص على نغمتها مع لوسيل، وكانا يسمعانها، ويدندنان بلحنها.

وقال في نفسه:

"أنا تعس، إذن لابد من أن أكون جديرًا بالتعاسة".

وبعد فوزه في الملاكمة، أخذ يلعب الأسطوانة ثماني مرات بين ضيق الحاضرين، واضطر في النهاية أن يترك بطاقته الشخصية للبارمان؛ لأنه لم يكن يحمل مليمًا واحدًا.

وهكذا تصرف كشاب في متقبل العمر؛ فالتعاسة تمد الإنسان أحيانًا بقوة وحيوية تشبه تلك التي تعطيها المنشطات، لكن ديانا كانت جالسةً في سيارتها أمام بيته.

وقد تبين "الرولز" من بعيد، وأراد أن يعود على عقبيه؛ لكنه فوجئ بالسائق الذي كان يغالب النوم حتى هذه الساعة، حتى يكمل صديق السيدة الصغير سهرته، وفتح السائق باب السيارة، ونزلت ديانا دون أن تنطق بكلمة.

ولابد أنها أعادت صبغ وجهها في السيارة؛ فقد انعكس على وجهها ضوء الفجر فبدت شفتاها قانيتين، وكانت ملامحها التي عنيت بصبغها تبدو عليها اللامبالاة كأنها مزيج من نضرة الشباب والاضطراب والخطأ.

والحق أنها أخطأت حين جاءت في الفجر تسترد حبيبها، تمامًا كما أخطأت منذ عامين وأحبته.

إن هذا الخطأ الذي ظل حتى الآن يُرى كالموسيقى الخلفية في فيلم حياتها، أصبح الآن يشبه قرع طبول وحشيًا.

لقد رأت نفسها تنزل من سيارتها، ورأت نفسها وهي تمد يدها إلى يد أنطوان وهو يساعدها على النزول من السيارة، ورأت نفسها تجاهد لكي تحتفظ لبضع لحظات بدور المرأة المحبوبة قبل أن تدخل في هذا الدور المجهول والمرعب، دور المرأة المهجورة.

وابتسمت بغرابة لسائقها، وهي تصدر له أوامرها بالانصراف، وكأنها تعرف أنه آخر شاهد عزيز على سعادتها.

وقالت ديانا لأنطوان:

- هل أثقل عليك؟

وهز أنطوان رأسه، وفتح لها باب غرفته ثم اختفى.

إنها المرة الثانية التي تجيء فيها إلى غرفته.

كانت المرة الأولى بعد تعارفهما، وكانت ديانا سعيدة لتمضية ليلتها الأولى عند هذا الشاب التائه الذي لا يجيد الأناقة، وبعد ذلك منحته السرير الكبير في شارع كاميون ومنحته الفخامة وطقوسها؛ لأن هذه الغرفة -في النهاية- ضيقة ومتعبة.

إنها الآن تعطي أي شيء مقابل النوم على هذا السرير الذي يشبه الأريكة، مقابل أن تضع ملابسها على هذا الكرسي القبيح الذي يعرقل حركتها في هذه المساحة الضيقة.

وأقفل أنطوان شيش النافذة، وأضاء مصباحًا أحمر، وتحسس وجهه بيده.

كانت ذقنه طويلة، وكان يبدو كأنه فقد وزنه في خلال ساعات قليلة، وباختصار كان يبدو عليه مظهر الشحاذ، هذا المظهر الذي سرعان ما يعكسه الأسى بسهولة على الرجال.

ولم تدرِ ديانا ماذا تقول له؛ فمنذ رحيله المفاجئ اكتفت بترديد هذه الجملة.

- لا بد أن يفسر لي الحكاية.

وجلست على السرير مشدودة القامة، وهمت بأن تتمدد على السرير لتقول له:

– لقد اشتقت لرؤيتك، هذا كل ما في الأمر، كنت قلقة عليك ولكنني الآن يغلبني النعاس، دعنا نَنَم.

لكن أنطوان ظل واقفًا وسط الغرفة، كان ينتظر، وكان كل شيء يدل على أنه يوضح الموقف أو على الأصح يحطمها، وبالتالي يؤلمها أشد الألم.. وقالت:

– كان انصرافك سريعًا.

– إني أعتذر.

– وأخذا يتحدثان كممثلين، كان يحس بذلك، وانتظر حتى يستعيد أنفاسه ويسترد قوته ليقول لها ذلك الرد المفجع ولكنه الضروري:

– كل ما بيننا انتهى.

وانتظر بضع لحظات لعلها تعاتبه، أو لعلها تذكر لوسيل فيغضب ويمده الغضب بما يحتاج إليه من القوة لكي يصبح متوحشًا، لكنها كانت رقيقة مستسلمة تكاد تكون خائفة.

وقفز إلى ذهنه خاطر مرعب: إنه لم يعرفها من قبل، ولم يبذل في سبيل معرفتها جهدًا.

لعلها تظنه كما يظن في نفسه: تظنه عاشقًا مخلصًا ومخلوقًا لا يمكن الإمساك به.

وخطر له أنها لا تتمسك به إلا لأنه يرضيها جسديًا، ويجرح غرورها؛ لأنها لم تستطع أن تخضعه تحت رحمتها مثل غيره من الذكور.

ولكن ماذا لو كانت هناك دوافع أخرى؟

ماذا لو أنها بكت فجأة، ولكن هذا غير متصور؛ فالأسطورة الرائجة في باريس حول ديانا، والتي سمع عنها، أنها قوية الشكيمة.

وفي لحظة، لم يعد أحدهما يتعرف على الآخر.

فتحت حقيبتها، وأخرجت علبة المساحيق الذهبية، ومرت على وجهها بالطلاء، حركة لا تفعلها إلا امرأة استبدَّ بها الجنون لكن أنطوان تخيل أنها حركة امرأة جافة الطبع.

وقال أنطوان لنفسه:

– إن لوسيل لا تحبني، ولذلك لا أحد يستطيع أن يحبني.

واشتعل فيه سوء الظن الذي تثمره التعاسة، وأشعل سيجارة، وألقى عود الثقاب باضطراب ونفاد صبر في المدفأة، وزاده الملل اضطرابًا، فاشتعل غضبه.

ونسيت ديانا أنطوان، ونسيت عاطفتها نحوه.. لم تعد تهتم إلا بنفسها، بديانا ميربك.. بتلك الطريقة التي تصرف بها رجل معها.

رجل هو حبيبها، يهجرها بلا سبب واضح وسط حفل ساهر وأمام كل أصدقائها، وتناولت بدورها سيجارة بيد مضطربة، فمد يده بعود ثقاب.

كانت رائحة الدخان بغيضة، لقد أفرطت في التدخين.

وأدركت فجأة أن هذا الصوت المضطرب المتعدد الذي يطن في أذنيها منذ لحظات، دون أن تحدده، ليس سوى زقزقة العصافير في الخارج، لقد صحت العصافير، مشبوبة الفرح، تحيي أول شعاع للشمس فوق باريس.

ونظرت إلى أنطوان:

– هل أستطيع أن أعرف سر هذا الهرب؟ أم إن هذا ليس من حقي؟

وقال أنطوان وهو ينظر إليها في وجهها وقد علت وجهه تكشيرة لم تعهدها من قبل:

– من حقك أن تعرفي، إني أحب لوسيل.. لوسيل سان ليجيه.

وقال الاسم كاملًا بعناد، كأنه يخشى خطأ ما في الاسم.

وأخفضت ديانا بصرها؛ فرأت حقيبتها.. حقيبة السهرة وقد تمزقت من جانبها، وعليها أن تغيرها، ونظرت إلى الخرق بغباء، وانتظرت أن تستعيد ثباتها، انتظرت أن يطلع الصباح.. أي شيء، أن يدق التليفون، أن تنفجر قنبلة ذرية، أن يعلو صراخ في الشارع لكي يغطي صراخها الصامت.

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ فالعصافير ما زالت تزقزق.

أصبحت هذه الضجة وهذا الاضطراب فظيعين.

قالت:

– كان عليك أن تخبرني مبكرًا على الأقل.

وقال أنطوان:

– لم أكن أعرف، لم أكن متأكدًا، كنت أحسب أنني أغار عليها معه، ولكنني أعرف الآن أنها لا تحبني، وأنا شقيٌّ تعِسٌ على الدوام.

كان يمكن أن يستمر، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن لوسيل لشخص ثالث.

كان يشعر بسعادة أليمة، ونسي –بكل ما يعنيه نسيان الرجال– أنه يتحدث عنها إلى ديانا.

ولم تفهم ديانا شيئًا مما قاله سوى كلمة "أغار عليها".

وقالت:

– ولماذا تغار؟

لا يمكن أن يغار الإنسان إلا من شيء عنده، كما قلت لي عشر مرات، هل كنت حبيبها؟

ولم يجب.

وعلا الغضب في رأسها، ليخلصها من الموقف.

– هل تغار من بلاسان لينير؟ إنك لن تستطيع تحملها بمفردك، يا عزيزي الشقي أنطوان، على أي حال، إذا كان هذا سوف يغريك.

وقال أنطوان بجفاف:

– ليست هذه هي المسألة.

وفجأة أحس بكراهية ديانا لأنها تحكم على لوسيل بنفس الطريقة التي كان يحكم بها عليها منذ أربع ساعات.

عليه أن يمنعها من أن تحتقرها، لقد اعترف لها، وهذا يكفي، وعليها أن تذهب وأن تتركه مع ذكرى لوسيل، في "بري كاتلان"، وعيناها مليئتان بالدموع.

هل بكت لأنه كان يؤلمها في قبضة يدها، أم لأنها تتمسك به؟

وقالت ديانا بصوت مبتعد:

– أين رأيتها؟

– نعم، بعد الظهر.

وتذكر وجه لوسيل في الحب، تذكر جسدها، صوتها، كل شيء فقده بسبب حماقته، وبسبب تشدده، وأحس بالرغبة في أن يضرب نفسه.

لن يتردد وقع خطوات لوسيل على السلم.

ولن ينعم بما بعد الظهيرة الملتهبة، ولا بالأسود والأحمر، لا شيء بعدها.

ومد وجهه المليء بالحنين، المليء بالوجد ناحية دينا، حتى إنها اضطرت إلى التزحزح إلى الوراء.

وقالت:

– لا أظن أنك تحبني.. ولكنني أظن أنك تقدرني بعض التقدير، أخشى..

ونظر إليها نظرةً صماء، واكتشفت في نظرته عالمًا جامدًا رجوليًا، عالمًا لا يستطيع الرجل فيه تقدير عشيقته؛ لأنه لا يحبها.

لا شك أنه كان فيما مضى يجاملها، كما أنه كان يحترمها، ولكنها كانت بالنسبة له في أعماقه وغرائزه أشنع المومسات؛ لأنها قبلت أن تعيش معه عامين دون أن تطلب منه أن يحبها، ودون أن تقول له أو أن يقول لها ذلك.

وفي عيني أنطوان الصفراوين استطاعت ديانا أن تقرأ متأخرة طفولة متوحشة عاطفية مطلقة، تشتهي كلمات الحب ومشاهده وصرخاته.

إن الصمت والأناقة لا يعنيان شيئًا عند الشباب.

وكانت تعلم، في نفس الوقت، أنها لو تقلبت متشفعة على هذا السرير، كما ترغب الآن، فلسوف يجن من الغضب، بل ويحس ببعض الضجر.

لقد تعود على شخصيتها، وعلى هيئتها التي اعتادت عليها، والتي كانت تظهر بها بعناد منذ عامين، ولا يستطيع قبول شيء آخر.

إن ارتفاع رأسها كلفها غاليًا، لكن هذه الكبرياء التي تجعلها تجلس مشدودة القامة فوق السرير في الفجر، هذه الكبرياء التي تميزت بها شخصيتها في عالم المجتمع، والتي كادت تنساها تمامًا، لقد اكتشفت في هذه الكبرياء الحليف اللعين الحميم الغالي.

وكأي فارس أصيل يكتشف أن ثلاثين عامًا من التوازن استطاعت أن تجعله ينجو من تحت أوتوبيس، رأت ديانا لدهشتها أن كبرياءها هذه الثروة المجهولة، أو على الأقل التي لم تُستَغَلَّ جيدًا، يمكن أن تنقذها من الأشنع؛

فرأت أن تتصرف على أساس أن أنطوان لم يعد يحبها، وأنها تستطيع أن تتصرف كما لو أنها ترفض هذا الوضع.

فقالت بصوت هادئ:

– ولماذا تقول لي ذلك الآن كان يمكن أن تستمر وقتًا؟ إنني لم أكون أتصور شيئًا كبيرًا، أو على الأصح لم أعد أؤمن بذلك بعد الآن.

وقال أنطوان:

– أنا تعس إلى حد أنني لم أعد أستطيع الكذب.

واكتشف مندهشًا أن هذا صحيح.

لم يعد يستطيع الكذب طوال الليل على ديانا.

ولم يعد يستطيع أن يغريها، وأن يقنعها بأنه لو كان متأكدًا من العثور على لوسيل في اليوم التالي، فإنه سيحبها.

إن السعادة تسمح بكل شيء، وقد فهم أنطوان في لحظة واحدة لوسيل، وفهم استرسالها وقدرتها على التخفي، وهي نفس الأشياء التي كان يأخذها على لوسيل طوال الأسابيع الأخيرة.

ولكن أينتهي كل شيء؟ فقد جرحها جرحًا لا يندمل، ولم تعد تريده.

فماذا تصنع هذه المرأة الأخرى عنده؟

وقالت ديانا برقة:

– وسارتك العزيزة، ماذا حدث لها بين كل هذا؟

هل ماتت وشبعت موتا؟

لم يجب.

نظر إليها بغضب شديد، لكنها فضلت هذه النظرة الغاضبة على تلك النظرة الهادئة البعيدة التي كان يرمقها بها منذ لحظات.

كانت تندفع –بغموض– تجاه السقوط، تجاه عدم التفاهم، تجاه الشر، تجاه ما لا يمكن غفرانه، وأحست أنها بذلك كله تنقذ نفسها.

وقال أخيرًا:

– أظن أنه من المستحسن أن نفترق، إنني لا أريد أن نفترق على شر، لقد كنت طيبة دائمًا معي.

ووقفت تقول:

– لم أكن طيبةً في يوم من الأيام، ولم أكن طيبة مع أحد.

لقد كنت أعتبرك لطيفاً في بعض الأحيان، هذا هو كل شيء.

وأحست أنها تتصلب أمامه، وتنظر إليه في وجهه، ولم يستطع أن يعلم أن مجرد عبور طيف واحد من الذكريات، أو طيف من الأسف فوق وجهه، الأسف لأنها ترحل، بالرغم منه، كان كافيًا ليجعل الدموع تنهمر من مآقيها.

ولكن لم يكن يأسف، واكتفت بتقديم يدها، واكتفت بأن تراه ينحني آليًا ناحية اليد، واختفى تعبير العذاب المكتوم الذي أحست به، وهي ترى رقبته المائلة نحوها لآخر مرة، اختفى كل ذلك حين رفع رأسه.

وهمست: "وداعًا".

واصطدمت بالباب صدمة خفيفة، وهرولت إلى السلم.

كان يسكن في الدور الثالث، وحين وصلت إلى الدور الأول أسندت وجهها الشهير على الحائط الرطب القذر، واستندت عليه بيديها الجميلتين، ذلك الوجه وهاتان اليدان الذين لم يعد لهم بعد الآن فائدة.

الفصل الخامس عشر

وأمضى أنطوان ستة عشر يومًا وحيدًا، كان يسير وحده على قدميه، لا يحدث أحدًا، ولم يعد يندهش حين يلتقي بأحد من معارف ديانا أو صديقاتها فلا يعيره اهتمامًا، كان يعرف قواعد اللعبة: لقد قدمته ديانا إلى وسط لا ينتمي إليه، ولابد أن يطرد منه آليًا بمجرد انفصاله عنها، إنه القانون، بل إن الاهتمام السريع الذي أبدته كلير ذات ليلة حين قابلته بدا له أن فيه شيئًا من المبالغة.. ومع ذلك، فقد أخبرته كلير أن لوسيل وشارل يقيمان في سان تروبيز، ولم تندهش حين عرفت أنه يجهل ذلك، كان واضحًا أنه هجر امرأة وفقد أخرى إلى الأبد، أضحكته هذه الفكرة قليلًا، على الرغم من أنه لم يعد يحس بالرغبة في الضحك طوال هذه الأيام، كانت جملة للشاعر أبولينير تسيطر عليه: "أهيم في باريس الفاتنة دون رغبة في أن أموت على أرضها، وقوافل السيارات تدمدم..". ولم يستطع أن يذكر بقية الجملة، ولم يحاول تذكرها.

صحيح أن باريس أصبحت رائعة حادة زرقاء شقراء، لكن صحيح أيضًا أنه لم يكن يرغب في أن يموت على أرضها، ولا أن يحيا كذلك فيها، بل فوق ذلك، لوسيل على شاطئ البحر الذي قالت له إنها تعبده، ولا بد أنها سعيدة من جديد، لأنها خلقت لذلك، ولعلها أيضًا تخون شارل مع شاب جميل؛ أما ديانا فقد ظهرت صورتها –كإعلان– مع دبلوماسي كوبي في إحدى حفلات افتتاح الباليه، أما هو فيقرأ ولم يعد يشرب، وأحيانًا في الليل يتقلب من الغضب في سريره ليفكر في لوسيل.

كان يبدو له كل ذلك كأنه قدر مكتوب، لم يعد هناك أي أمل؛ فلم تعد ذاكرته تسعفه بالسبب، كل ما يتذكره هو متعة لوسيل ومتعته الخاصة، وهي ذكريات كانت تجتاحه ولا تطمئنه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتأكد تمامًا من شدة متعة زميله، ولأنه لا يستطيع أن يحققها أو يحقق أكثر منها مع شخص غريب، لو أنه عرف أن لوسيل لا يمكن تعويضها في اللذائذ، فهو لا يعرف أن لوسيل ترى فيه ذلك أيضًا.

وكان يتذكر أحيانًا وجهها الغاضب حين وصل متأخرًا، ويتدبر جملتها:

"أتدري؟ أحس أنني سأحبك إلى الأبد".

ولكنه يظن الآن أن الحظ خانه؛ لأنه كان عليه أن يهتم بروح لوسيل أكثر من اهتمامه بجسدها، لأنه إذا كان قد امتلكها جسدًا فقد هربت منه روحًا، صحيح أنهما يضحكان معًا، والضحكة المشتركة ثمرة الحب، لكن هذا وحده لم يكن يكفي.

ولم يكن ليفهم ذلك إلا حين استعاد ذكرى هذا الحنين الغريب الذي استولى عليه وسط غضبه، حين اكتشف الدموع في عيني لوسيل وهما يجلسان في مطعم "بري- كاتلان"، وحتى يعشق رجل وامرأة أحدهما الآخر عشقًا حقيقيًا ليس يكفي أن ينعما بلذة الجسد، ولا أن يسعدا بالضحك معًا، بل لا بد لذلك أن يتعذبا معًا، كان يمكن أن تتحمل العكس، ولكنها لن تتحمل أي شيء بعد الآن لأنها اختفت، ولكنه كان يتوقف فجأةً عن الحوار أو الشرح الذي كان يدور في عقله بينه وبينها عشرين مرة في كل صباح، فيقف عن مقعده أو يتوقف عن المسير.

يبدو أن هذه الحالة لا تنتهي.

وفي اليوم الخامس عشر، قابل جوني الذي كان ينعم بالإجازة ويتجول في مقهى "الفلور" وتبدو عليه السعادة لرؤيته، وجلسا على نفس المائدة، وتناولا كأسًا من الويسكي، وتسلى أنطوان من الطريقة الخليعة التي يحيي بها جوني أصدقاءه، كان يعلم أنه جميل وأنه أشقر، لكنه لم يكن يعلم شيئًا آخر.

وسأله جوني:

– كيف حال لوسيل؟

– لا أعرف شيئًا على الإطلاق.. وأخذ جوني يضحك.

– كنت أعرف ذلك، أنت على حق في الانفصال، إنها مخلوقة لطيفة، ولكنها خطيرة ولكنها قد تنتهي إلى إدمان الخمر، وشارل يدللها.

– ولماذا؟

وراقب أنطوان صوته، فاكتشف اللامبالاة.

– لقد بدأت؛ فقد شاهدها أحد أصدقائي تترنح على البلاج؛ فلا تندهش من ذلك.

وأخذ يضحك من جديد أمام التعبير الذي ظهر على وجه أنطوان.

– ألا تعلم أنها مجنونة بحبك، إن هذا واضحٌ من على بعد عشرين خطوة، فماذا دهاك؟

وضحك أنطوان، لم يستطع أن يتوقف عن الضحك، لقد جُن من

السعادة وجن من الخجل، لكم هو غبي، لقد كان شديد الغباء، إنها تحبه بالتأكيد، إنها تفكر فيه، كيف ظن أنهما كانا سعيدين شهرين كاملين دون أن تحبه، كيف كان متشائمًا إلى هذا الحد، أنانيًا، غائبًا عن الوعي؟ إنها تحبه، إنها تندم على فقده، إنها تشرب في السر ولهذا السبب، بل لعلها ظنت أنه نسيها وهو الذي يفكر فيها طوال هذين الأسبوعين، ولعلها أيضًا كانت تعسةً بسبب حماقته الطائشة، لا بد أن يراها فورًا، ولا بد أن يشرح لها كل شيء، وسيفعل كل شيء تريده ولكن سيأخذها بين ذراعيه، ويسألها الصفح ويقبّلها ساعاتٍ طويلةً، أين سان تروبيز؟ وينهض من مقعده.

وقال جوني:

– ولكن قل لي، هدئ من روعك، إن منظرك يشبه المجنون الغاضب يا صديقي العزيز.

وقال أنطوان:

– معذرةً، لابد أن أتحدث في التليفون.

وطار أنطوان إلى منزله، وتشاجر مع سيدة في التليفونات؛ لأنها تأخرت في شرح سبب التعطيل في الاتصال الأوتوماتيكي، وطلب ثلاثة فنادق، وعلم من الفندق الرابع أن مدموازيل سان ليجيه في البلاج ولكنها سوف تعود، وطلب رد المكالمة، واستقر على سريره يده على سماعة التليفون كيد الفارس لانسيلو دي لاك على مقبض سيفه، وقرر أن ينتظر ساعتين، ست ساعات، كل عمره، وهو سعيد سعادة لم يحسها في حياته من قبل، وفي الرابعة انطلق التليفون، فرفع السماعة.

– لوسيل؟ أنا أنطوان.

– أنطوان.

وكأنها تحلم.

– لا بد.. أن أراك.. هل أستطيع المجيء؟

– نعم، متى؟

ومن صوتها الهادئ وإجاباتها القصيرة، أحس بارتداد هذا الشيء المريع الوحشي الذي كان يعذبه، ويهزه بعنف، ويشقيه طوال الخمسة عشر يومًا.. أحس بهزيمة هذا الشيء، ورأى يده توضع على السرير، ودهش لأنه لا يرتجف، قال:

– لابد أن هناك طائرةً ما، سأذهب الآن، هل تأتين لي في نيس؟

– نعم "ترددت ثم أضافت":

– أنت في البيت!

وردد اسمها ثلاث مرات: "لوسيل، لوسيل، لوسيل.." قبل أن يجيبها بالإيجاب،

وقالت:

– أسرع.. ثم أقفلت.

وفكر في هذه اللحظة فقط في أنها قد تكون مع شارل، كما تذكر أنه لا يملك أجرة الطائرة، ولكنه كان مشتتًا، إنه يستطيع سرقة محفظة أحد

المارة، أن يقتل شارل، أن يسوق طائرة بوينج، في السابعة والنصف كان يمكن أن يستمع لنصيحة المضيفة لينظر إلى اليسار ويعجب بمدينة ليون لو كان يحس بأقل رغبة في النظر.

وأقفلت لوسيل كتابها بعد أن وضعت السماعة، وأخذت مفاتيح السيارة التي أجرها شارل ونزلت.

وفاجأت نفسها في المرآة الكبيرة التي تغطي مدخل الفندق، وحيَّت نفسها بابتسامة خافتة حائرة كتلك الابتسامة التي تقدمها لمريض، كنا نظن أنه لن يشفى، ولكنه خرج فجأةً من المستشفى، تظهر عليه العافية، كان عليها أن تحتاط في القيادة؛ فالطريق مبتلٌ وزلق ورصفه سيئ، يجب ألا يتدخل كلبٌ أهوج أو يتدخل حادث مادي بينها وبين أنطوان، ظلت تفكر في ذلك كأنها فقدت ذاكرتها، وفقدت نفسها حتى وصلت إلى المطار. القادمون من باريس يصلون السادسة، وعلى الرغم من علمها أن أنطوان لن يلحق هذا الموعد، إلا إنها وقفت على باب الخروج، الطائرة التالية في الثامنة، اشترت رواية بوليسية وجلست على البار في الدور العلوي، وحاولت عبثًا أن تفهم ماذا حدث لبوليس سريٍّ خاص لم يستطع أن يجذبها! كانت تعلم هذا التعبير "السعادة الغامرة" لكنها لم تتحقق من صحته، ودهشت لأنها تحس أنها مرهقة ممزقة، حتى تساءلت إذا كانت سيغمى عليها، أو ستنام على مقعدها قبل أن تجيء الثامنة، ونادت النادل، وقالت إنها تنتظر شخصًا في طائرة الثامنة، ولم يهتم النادل كثيرًا، لكن إذا حدث لها شيء؛ فإن النادل يستطيع أن يخطر أنطوان.

لم تتصور كيف يحدث ذلك، ولكنها كانت تريد أخذ كل الاحتياطات لحماية هذا الإنسان الجديد المتوهج الرقيق، هذا الإنسان السعيد الذي صحبته، وغيرت مكانها لأنها لا ترى جيدًا الساعة الكبيرة المعلقة فوق البار، وخُيِّل إليها أنها لا تسمع من مكانها مكبرات الصوت.

وحين انتهت من رؤية الحروف السوداء التي تضمها صفحات كتابها لم تكن الساعة غير الساعة، وكانت امرأة تبكي –في الرواية– وهي تقبل رجل البوليس السري الجريح والراقد في المستشفى بميامي؛ فأحست حينذاك بالألم.

ومرت ساعة، شهران، ثلاثون عامًا قبل أن يظهر أنطوان في نهاية الصالة في مقدمة المسافرين، لأنه لم يكن يحمل متاعًا، ولم يكد يخطو بضع خطوات تجاهها حتى رأت ببساطة أنه يخيف، باهت اللون، رث الثياب، عرفت ذلك بوعيها المتقد الذي عرفت به، في نفس الوقت، أنها تحبه، وجاء فتصافحا باليد دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر كثيرًا، وترددا بعض الوقت قبل أن يتجها إلى باب الخروج، وقال لها وكأنه يسر شيئًا أنها قد اسمرَّت، وتمنت أن يكون قد قضى رحلة مريحة، ثم ركبا السيارة، وقادها أنطوان، وهي تريه المفتاح.

كان الليل دافئًا، ورائحة البحر تمتزج بالبنزين، ونخيل المطار يهتز اهتزازًا خفيفًا، وسارا بضعة كيلومترات دون أن يقولا شيئًا بل ودون أن يتساءلا إلى أين يذهبان، ثم أوقف أنطوان السيارة على حافة الطريق وأمسك بها.. لم يقبِّلها، اكتفى بأن يحتضنها بين ذراعيه، وخده فوق خدها، وكادت تبكي من الراحة، وقال لها بهدوء وصوت خفيض كأنه يحدث طفلة:

– أين شارل؟ لابد أن يخبره الآن.

– سنستقل القطار هذه الليلة، يوجد قطار الليل. أليس كذلك؟ سنستقله إلى كان.

وأومأت موافقة، ثم ارتدت قليلًا حتى تنظر إليه، ورأت عينيه وشكل فمه، ومال يقبّلها.

كان القطار إلى "كان" عربة نوم، وطوال الليل كان صفير القطار وإضاءة النور على وجهيهما المتقاربين، وحين يتوقفان أحيانًا في إحدى المحطات، كانت الضجة المعدنية المنتظمة تشهد على حالة العجلات، وتشرف على تعرفهما في باريس، وتشهد عل مصيرهما، وبدا لهما أن السرعة تضاعف اللذة، وأن القطار أصبح مجنونًا وأنهما هما اللذان يزفران أحيانًا هذه الأناتِ الملتهبة في الحقول الهاجعة.

قال شارل:

– كنت أعرف.

وأدار له ظهره وهو يسند جبهته على النافذة، كانت تجلس فوق سريره وهي تهتز من التعب، يخيل إليها أنها مازالت تسمع هزات القطار.

كانت السماء تمطر حين وصلا إلى محطة ليون، فاتصلت بشارل من عنده، من عندهما، وجلست تنتظره، وجاءها بسرعة؛ فقالت له على الفور أنها تحب أنطوان، وأنه لابد أن تتركه، وتظاهر بأنه ينظر من النافذة، ودهشت لأن رقبته مستقيمة، وأنها لا تثيرها، بينما رقبة أنطوان، بشعرها الأشقر

المتهوش، تثير فيها كثيرًا من الحنان.

هناك رجالٌ كثيرون لا يمكن أن تتخيل طفولتهم.

قال:

– أظن أن هذه القصة لا تؤدي إلى شيء.

إنني آمل.. وتوقفت بغتة، ثم توجه إليها:

– لابد أن تفهمي أنني أحبك، لا تظني أنني أستطيع الاستغناء عنك أو نسيانك أو تعويض فقدك، لم أعد في السن التي تسمح لي بذلك.

وابتسم ابتسامة باهتة.

– سوف تعودين إليَّ يا لوسيل، إنني أحبك من أجل ذاتك، لكن أنطوان يحبك من أجلك.. كلك، إنه يريد أن يسعد معك، وهذا شيء طبيعي لمثل سنه، إنني أريد أن تصبحي سعيدة بالاستقلال عني.. وليس لي إلا أن أنتظر.

وهمت بالاحتجاج، ولكنه رفع يده بسرعة جدًا.

– وأكثر من هذا، لسوف يحاسبك أو لعله يحاسبك الآن على ما أنت عليه:

إبيقورية متلذذة غير عابئة بل وجبانة، ولسوف يحاسبك تمامًا على ما سوف يسميه نقاط ضعفك أو عيوبك، إنه لا يفهم بعد أن قوة المرأة في ذلك السبب الذي يدفع الرجال لحبها، حتى ولو كان ذلك الحب يخفي الخراب، ولسوف يتعلم ذلك معك.

لسوف يعرف أنك طروب غريبة ولطيفة لأن فيك كل تلك العيوب، لكن سيكون الوقت متأخرًا، على الأقل هذا ما أعتقده، وسوف تعودين إلي.. لأنك تعلمين أنني أعلم.

وضحك ضحكة صغيرة.

– لقد عودتك على الخطب الطويلة، أليس كذلك؟

والآن، قولي له أنه لو أصابك بسوء، إذا لم يعدك إليَّ خلال شهر أو ثلاثة أعوام، سعيدةً كما أنت الآن؛ فإنني سأحطمك عن رضا..

كان يتحدث وفي صوته بعض الغضب، وهو ينظر إليها، والدهشة تبدو عليها، كانت تبدو عليه قوة تقترب من القسوة لم تعهدها فيه من قبل.

– كنت أحاول إبقاءك، أليس كذلك؟

ولكن اذكري هذا جيدًا: إنني أنتظرك "في أي وقت".

وأي شيء تريدينه، في أي حال، ستحصلين عليه.

هل تذهبين فورًا؟

وهزت رأسها بالإيجاب.

– هل ستأخذين كل ما يتعلق بك؟ –وحين هزت رأسها بالتأكيد–:

يا للخسارة، لكنني لن أستطيع رؤية معاطفك في الدواليب، وأضاف بابتسامة صغيرة:

ولا سيارتك في الخارج.

– وقد تغيبين طويلًا.

وظلت تنظر إليه بلا حراك.

كانت تعلم أن ما يحدث فظيع، وأن ما يحدث هو بالضبط ما تريد.

كان كل شيء يحدث كأنها تعرفه منذ وقت طويل، وامتزج يأسها من أن تجعله يتعذب بشيء من الفخر لأنه يحبها.

غير معقول، إنها لا تستطيع أن تتركه هكذا، وحيدًا في هذه الشقة الواسعة.

قالت:

– شارل، إنني..

قال:

– لا، لقد انتظرت طويلًا، عليكِ أن تذهبي الآن.

ووقف لا يتحرك أمامها ثانية كأنه يحلم، وهو يطيل النظر إليها، ثم انحنى بسرعة ولمس شعرها واستدار:

– اذهبي الآن، سوف أجعلهم ينقلون حقائبك إلى شارع دي بواتييه حالًا. ولم تندهش لأنه كان يعرف عنوان أنطوان.

وتملكها الرعب من نفسها حتى أنها لم تستطع رؤية شيء سوى هذا الظهر المنحني قليلًا، وذلك الشعر الرمادي، وخيل إليها أنها ترى عمها.

وهمست قائلة: "شارل"، ولم تعد تعرف إذا كانت تريد أن تقول "شكرًا"،

أو "معذرة" أو شيئًا من هذه السماجات، لأنه هز يده هزة ضعيفة كسيرة دون أن يعيدها، إيماءة إلى أنه لم يعد يستطيع الاحتمال، فخرجت بظهرها..

ولاحظت أنها تبكي وهي في السلم، وأنها دخلت المطبخ تنهنه على كتف بولين التي أكدت لها أن الرجال متعبون، حقًا، ولكنهم لا يستحقون البكاء عليهم.

وكأن أنطوان ينتظرها في الخارج في أحد المقاهي في الشمس.

الجزء الثاني

الصيف

الفصل السابع عشر

أحست لوسيل أنها أصبحت فريسة مرض رائع غريب، كانت تعلم أنه السعادة، ولكنها لا تجرؤ على أن تنطق باسمه؛ فلقد ظنت أنه من المبالغة أن يصل مخلوقان ذكيان متوتران متيقظان إلى نهاية أنفاسهما، وإلى الحد الذي يختلطان فيه ويمتزجان، فلا يستطيعان أن يقولا شيئًا سوى "أحبك" بصوتٍ أقرب إلى الأنين، ثم لا يقولان شيئًا بعد ذلك.

كانا يعلمان أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء يضاف فعلًا، ولم يكن هناك شيء يمكن أن يصبح أملًا بعد ذلك لتستعيد ذكرى هذا الامتلاء، كانت سعيدة.. وكانت خائفة، لقد تحاكيا كل شيء: طفولتهما، ماضيهما، وخاصة تلك الشهور التي مضت، وككل المحبين أخذا يسترجعان كيف تقابلا أول مرة، ويذكران أدق التفاصيل في علاقتهما، وكانا يتساءلان بدهشة حقيقية تكاد تكون غبية.. بدهشة كلاسيكية، كيف ظلا يشكان مدة طويل في حقيقة عواطفهما، لكنهما إذا كانا يتجولان في ماضيهما المشترك، القلق المضطرب، فإنهما يحلمان بالمستقبل المشترك الذي يمكن أن يكون هادئًا ودائمًا.

كانت لوسيل أكثر خوفًا من أنطوان من وضع المشروعات ومن الحياة البسيطة، وحتى ذلك الحين، كانا يشهدان حاضرهما وهو يمر، وينهضان في الصبح ليريا نفسيهما في سرير واحد لا يشبع أحدهما من الآخر، فإذا هبط الليل يسيران في باريس الدافئة الناعمة التي ليس لها مثيل، وفي لحظات كانت تبدو عليهما السعادة إلى درجة توحي أن عشقهما قد انتهى.

كان يكفي أن يتأخر أنطوان ساعة بعد أن تكون قد ودعته بهدوء يشبه عدم الاكتراث الذي يصل إلى حد أنها تشك في أنها ستصبح كما كانت في سان تروبيز، ذلك الحيوان المريض الممزق الذي فقد صوته، لكن سرعان ما تعود إليها الظنون، فإذا بها ترتجف وهي تتخيل جسد أنطوان تحت أوتوبيس، ثم تنتهي إلى أن السعادة هي وجوده، لأن غيابه هو اليأس.

وكان يكفي أن تبتسم لوسيل بالصدفة لأحد الرجال حتى يغير لون أنطوان، وحتى تتحطم تلك السعادة الرقيقة المؤقتة التي لم يكسبها بعد، على الرغم من أن الامتلاك الجسدي والدائم –الذي لا يتعب منه– يؤكد عكس ذلك، كان بينهما شيء جارف قلق حتى في لحظات الهدوء الناعمة؛ فإذا تعذبا أحيانًا في هذا القلق؛ فإنهما كانا يعلمان أن اختفاء هذا القلق عند أحدهما إنما يعني انتهاء حبهما، وقد كان جزء كبير من علاقتهما قد تحدد بصدمتين عاطفيتين تكادان تتساويان: بالنسبة لها حين تأخر أنطوان لبعد الظهر في ذلك اليوم الشهير، وبالنسبة له حين رفضت لوسيل أن تذهب معه إلى بيته بعد عودة شارل.

وكانت لوسيل التي يكاد التواضع عندها يتساوى مع الأنانية كغيرها من الفتيات اللامباليات، تظن أن أنطوان لن يعود لها ذات يوم كما أن أنطوان كان يظن أن لوسيل ستخونه ذات ليلة.. ويعني هذا أن هذين الجرحين اللذين شفتهما السعادة، كأنما أرادا أن يبقيا مفتوحين عن قصد مثل هذا الذي نجا من حادث خطير، وبعد ستة أشهر من العذاب، إذا به يعود إلى موطن الجرح يحكه بأظافره، ويتحسس مكانه، ويقارنه ببقية جسمه السليم. كانا يحتاجان إلى جبيرة ما، كان أنطوان يحتاج إليها بإحساس عميق، ولوسيل لأنها تظن أن هذه السعادة المشتركة غريبة.

وصحا أنطوان مبكرًا وأدرك جسده قبل وعيه وجود لوسيل في السرير، واشتهاها حتى قبل أن يفتح عينيه، وتزحلق نحوها نائمًا مبتسمًا، ولم ينزعه من أحلامه سوى تقلص قبضة لوسيل فوق ظهره.

كان أنطوان ينام بعمق واستغراق كما ينام بعض الرجال وكل الأطفال، ولم يكن يحب أكثر من صحوه البطيء المتلذذ.

أما لوسيل، فكان أول خوف تخشاه في الصباح هو الخوف من اللذة، فكانت تسترد وعيها وهي مندهشة تكاد تكون غضبى من هذا الشيء الذي يقترب من التهتك الذي يحرمها من كل عاداتها في صحو الصباح، تعودها على أن تفتح عينيها، ثم تقفلهما، ترفض الصباح أو تقبله، وغير هذا من الصراع الصغير الغامض الرقيق الذي تقوم به، وكانت أحيانًا تصحو قبله.

لكن أنطوان لم يكن ينام أكثر من ست ساعات، وكان يسبقها في الصحو دائمًا، كان يضحك من غضبها، متمتعًا بأنه انتزع بسرعة هذه المرأة من ظلمات النوم، ليغرقها في ظلمات الحب، كان يحب تلك اللحظات بالذات التي تكاد تفتح فيها عينيها، تائهة مبلبلة، فإذا تعرفت عليه أغلقت عينيها كأنها مضطرة، ثم تعقد ذراعيها حول عنقه.

كانت حقائب لوسيل موضوعة فوق الدولاب، ولا يوجد داخلها سوى فستانين أو ثلاثة فساتين من التي يفضلها أنطوان، معلقةً كتفًا لكتفٍ مع بذلتيه، وكان الحمام يشهد على وجود امرأة من كثرة الزجاجات الصغيرة التي وضعتها لوسيل ولا تستخدمها عادة.

وكان أنطوان وهو يحلق يحكي لها عشرات التعليقات على طريقة وضع

العشب على الوجه لإزالة الغضون، وكانت لوسيل تقول له أنه سيسعد بعد مدة بأن يستخدم هذه الأعشاب، وأنه سوف يتغضن فجأة ولأنه على أي حال قبيح الشكل، وكان يقبِّلها فكانت تضحك، وكانت باريس رائعة الجمال هذا الصيف بالذات، وكان ينزل إلى عمله في التاسعة والنصف؛ فتبقى في الغرفة هادئة تتنهد بعد أن ترشف فنجانًا من الشاي، وهي لا تستطيع النزول إلى المقهى القائم على ناصية الشارع.

كانت تتناول واحدًا من مئات الكتب الملقاة في أكوام، في كل ركن من أركان الغرفة لتقرأ.. وكانت الساعة الكبيرة التي كثيرًا ما عذبتها فيما مضى حين تدق كل نصف ساعة قد أصبحت دقاتها رائعةً في أذنيها، وكانت أحيانًا وهي تسمع الدقات تضع كتابها جانبًا، وتبتسم في الفضاء كأنها تبتسم لطفولتها التي تسترجعها.

وفي الحادية عشرة أو الحادية عشر والنصف، كان أنطوان يدق التليفون ويتكلم بصوت غير مكترث غالبًا، وأحيانا بصوت سريع وحاسم لرجل غارق في العمل. وكانت لوسيل حينذاك تجيبه بجدية، وأحيانًا تنتابها ضحكة مجنونة داخلية، لأنها تعرف أنه حالم وكسول، ولكنها كانت في هذه المرحلة من الحب التي تحب فيها بحنان مفارقاته وحقيقته، بل وتحب، على العكس أكاذيبه الصغيرة، لأنها تتصور أن هذه الأكاذيب ليست سوى دليل على الثقة الكاملة، وكانت تلقاه في الظهر في حمام السباحة في ميدان الكونكورد، ليتناولا الشطائر في الشمس، ثم يعود إلى العمل ما لم تثر فيها الشمس وتلامس جلديهما العاريين الملفوحين من حرارة الشمس، فلا يعرقلهما الحوار على أن يأخذها إلى بيته، إلى بيتها مهرولين، ليعود إلى مكتبه متأخرًا، ثم تبدأ

لوسيل نزهتها الطويلة في باريس على قدميها، لتلقى بعض أصدقائها أو معارفها البعيدين، وتتناول عصير الطماطم على أرصفة المقاهي.

وكان الجميع يحدثونها لأن السعادة تتألق في وجهها، وفي أمسيات الصيف كانت هناك كل السينمات والشوارع الدافئة حول باريس والكباريهات شبه المهجورة، حيث علمته الرقص، وكل الوجوه الهادئة المجهولة، وكل الكلمات التي تتمنى أن تقولها، وكل ما تذهب بها الرغبة في أن تصنعه.

وفي نهاية يوليو، قابلت جوني صدفة في مقهى الفلور، كان عائدًا من عطلة الأسبوع في مونت كارلو مرهقًا، يصحبه شاب ملفلف الشعر يدعى برونو، وهنأهما جوني بما يبدو عليهما من سعادة، وسألهما لماذا لا يتزوجان وضحكا كثيرًا للفكرة، وقالا إنهما لا يهتمان كثيرًا بالمستقبل، وأن الزواج على أي حالٍ فكرةٌ سخيفة، وتضاحك معهما جوني موافقًا.

وحين ابتعدا همس قائلًا: "خسارة"، فاندهش المدعو برونو، وحين سأله عن السبب علت وجه جوني ملامح خرقاء، ولم يعهدها الفتى، وقال جوني: "لن تفهم، ولكن فات الأوان"، ورضي الفتى منه الإجابة لأنه لم يكن في الحقيقة يفهم أي شيء.

وجاء أغسطس، شهر الإجازات.

لم يكن أنطوان يملك مالًا، فبقيا معًا في البيت، واشتدت الحرارة فجأةً في باريس، فأصبح الجو خانقًا عاصفًا، تتخلله موجات من المطر العنيف القصير، كانت تترك شوارع باريس منهوكة طازجة مثل النساء اللواتي يمضين

فترة النقاهة أو الشابات اللاتي يلدن، وأمضت لوسيل ثلاثة أسابيع فوق سريرها بالروب دي شامبر، كانت ثيابها تتكون من المايوه والبنطلونات المخصصة لأيام مونت كارلو الجميلة أو أيام كابري التي يتعهد بها بلاسان لينيير، ولم تستطع لوسيل تغيير ملابسها.

وأخذت تنكبُّ على القراءة وتفرط في التدخين، وتنزل لشراء الطماطم للغداء، وتحب "أنطوان" وتحدثه في الأدب، وتنام.

وكانت العواطف التي تخافها تلقي بها إليه، فكان يرفق بها.. وكان يفسر لها علميًا العواطف بأنها تجمعات من الضباب، لكنها لم تكن تصدق تمامًا، فكان يسميها "كافرتي" وهو يحدثها بصوت متهدج، وكان يتوقف عن إزعاجها حتى ينتهي الرعد تمامًا.

وكان أحيانًا يلقي عليها نظرة متسائلة تائهة، كان كسلها وقدرتها الهائلة على ألا تعمل شيئًا وألا تتنبأ بشيء وقدرتها على السعادة –وأن تعيش أياما طويلة خاوية بلا حركة متشابهة– كان كل ذلك يبدو له أحيانًا شيئًا متطرفًا بل يكاد يكون مرعبًا، كان يعلم تمامًا أنها تحبه، وأنها لذلك لا تحس بالملل معه، وأنه لا يحس بالملل معها، ولكنه كان يعلم أن مثل هذه الحياة هي التي تتلاءم مع طبيعتها العميقة، وأنها تسند هذا الفراغ الدائم إلى عاطفة مشبوبة.

كان يخيل إليه أنه وقع على حيوان غير مفهوم، أو نبات غير معروف، أو مثل "رعرع أيوب"! وكان يقترب منها ويندس تحت الغطاء، ولا يترك شيئًا من لذتها، وفي عرقهما الممتزج ومن تعبهما، حتى يتأكد بهذه الطريقة وحدها، ويتأكد جدًا من أنها امرأة، وأخذا يتعرفان شيئًا فشيئًا على جسديهما تعرفًا

دقيقًا، بل ووصلا إلى ما يشبه العلم، علمًا لا يستمر نجاحه؛ لأنهما يهتمان أول الأمر بإمتاع الآخر، ثم يختفي هذا العلم، ويفشل أمام لذة كل منهما.. لذته الخاصة..

وفي هذه اللحظات، كانا لا يتخيلان أنه كان لا يمكن ألا يتقابلا طوال السنوات الثلاثين، فلا ينقضي يوم إلا إذا اعترفا لنفسيهما، ولعدة مرات، أن كل ما عدا ذلك ليس حقيقيًا، ولم تعد لشيءٍ قيمة سوى اللحظات التي يعيشانها على هذا النحو.

وانقضى شهر أغسطس كالحلم.. وفي ليلة أول سبتمبر– قرابة منتصف الليل، كانا يتمددان جنبًا لجنب، ومنبه أنطوان الذي ظل معطلًا طوال شهر كامل يستعيد دقاته النشيطة، ودق المنبه الثامنة، كان أنطوان ينام على ظهره بلا حراك، ويده التي تمسك سيجارة تطل خارج السرير.

وكان المطر يهطل في الشارع، حبات بطيئة لينة، وخيل إلى أنطوان أن المطر أصبح مالحًا دافئًا كدموع لوسيل التي أخذت تنزل على وجنتيها في هدوء وعيناها مفتوحتان.

الجزء الثالث

الخريف

الفصل الثامن عشر

انتظرت لوسيل الأتوبيس في ميدان ألما، وزاد اضطرابها. فشهر نوفمبر خاصة شديد البرودة كثير المطر، والمظلة الصغيرة أمام المحطة مزدحمة بأشخاص كثر يكادون يكونون عدوانيين؛ ففضلت الوقوف بعيدًا، وشعرها المبتل يلتصق بوجهها، ونسيت أن تحجز تذكرة من تذاكر الانتظار في الصف؛ فاصطدمت بامرأة تزاحم بخبث، وبعد بضع دقائق تذكرت أنها لم تحجز التذكرة، وفي هذه اللحظة، ندمت على سيارتها، وصوت المطر الذي كان يتساقط على السقف والرحلات التي لم يكن لها هدف سوى السير على الطريق المبتل، إن متعة المال هي أنها تجنبك مثل هذا الانتظار والنرفزة والآخرين.

كانت قد جاءت من المكتبة السينمائية في الباليه دي شايو؛ لأن أنطوان نصحها –بلهجة شبه آمرة– أن تذهب لرؤية إحدى روائع المخرج بابست، كان الفيلم من الروائع، لكنها اضطرت أن تقف في الصف نصف ساعة وسط حشد من الطلبة الصاخبين، وساءلت نفسها لماذا لم تبق في الغرفة تكمل قراءة رواية لسيمنون كانت تعشقها، وكانت الساعة قد تعدت السادسة والنصف، وسوف تصل بعد وصول أنطوان، وتمنت لو أن هذا شفى أنطوان من الجنون الشنيع الذي يتملكه لكي يدفع لوسيل للخروج من ذاتها ومن الاتصال بالحياة الخارجية! كان يقول لها إن من غير الطبيعي وغير الصحي أن تعيش ثلاث سنوات من الحياة الاجتماعية النشيطة وما سماه

العلاقات الإنسانية، ثم تبقى بعد ذلك هكذا محنطة لا تفعل شيئًا على الإطلاق، ولم تستطع مصارحته بأن المدينة، حتى ولو كانت هذه المدينة باريس، تصبح مرعبة بتذاكر الأوتوبيس ومائتي فرنك في الجيب إذا تعود الإنسان على الحياة بطريقة مختلفة. لو قالت له ذلك لأحرجته، كما تحس هي أيضًا بالحرج.

إنها تذكر أنها عاشت نفس الحياة حين كانت في العشرين، ولا تحب مجرد الفكرة في ألا تحاول من جديد وهي في الثلاثين.

وتوقف الأوتوبيس، ونودي على الأرقام الأولى، وعاد التعساء أصحاب الأرقام التالية إلى كشكهم الزجاجي، واجتاحها نوع من أنواع اليأس الحيواني.

وبعد نصف ساعة وشيء من الحظ، سوف تستطيع أن تصعد إلى الأوتوبيس، ليحملها على بعد ثلاثمائة متر من غرفة أنطوان، وسوف تسير تحت المطر وتصل متعبة قبيحة مضطربة الشعر إلى رجل متعب مثلها.

ولو أنه سألها عن رأيها في بابست لفضَّلت أن تحدثه عن الزحام والأوتوبيس والنظام الجهنمي الذي يفرضونه على الذين يعملون ولو فعلت ذلك لأصابه اليأس.

ومر أوتوبيس دون أن يتوقف.

وقررت فجأة أن تذهب على قدميها.

واقتربت منها سيدة عجوز، لتمد يدها إلى ماكينة تذاكر الانتظار.

وقدمت لها لوسيل تذكرتها.

خذيها، خذي تذكرتي، سأمشي على قدمي.

وحدجتها السيدة بنظرة متسائلة كادت تنقلب عدوانية.

ولعلها ظنت أن لوسيل تفعل ذلك من قبيل الإحسان، بسبب سنها أو الله أعلم ماذا.

إن الناس أصبحوا قليلي الثقة هذه الأيام.

إنهم يمضغون الملل والمتاعب والتليفزيون الغبي والجرائد المجنونة، حتى إنهم لم يعودوا يحسون بأي إحساس بالتبرع.

وكادت لوسيل تعتذر:

– إنني أسكن على بعد خطوات، ثم إنني تأخرت عن موعدي، وقد خف المطر، أليس كذلك؟

ونطقت "أليس كذلك" كأنها تناشد المرأة وهي ترفع نحو السماء نظرة مصحوبة بنية سيئة، لأن المطر كان يشتد.

وخطر لها في نفس الوقت: "ولكن ماذا تنفعني موافقة هذه المرأة، إذا لم تكن تريد التذكرة، فلتلقها على الأرض، إنني لا أكترث لو انتظرت نصف ساعة أخرى".

وأحست باضطراب شديد:

– ماذا أصابني؟ كان لا بد أن أفعل كما يفعل بقية الناس، أن ألقي بالتذكرة على الأرض، ما هذا الجنون الذي أصابني في أن أحَب، أن أكون محبوبة، وأن أنشئ علاقات عاطفية في ميدان ألما في السادسة والنصف مساءً

أمام أوتوبيس، وأن أرغب في أن يحبني الناس جميعًا، إن العلاقات العاطفية وفورات العواطف بين من لا يعرفون بعضهم تحدث بين كأسين من الويسكي، أو بين الناس المرتاحين، أو في بار خافت الضوء، أو أثناء إحدى الثورات.

ومع ذلك، تعشمت لوسيل في يأس أن تكون مخطئة.

ومدت المرأة يدها، وأمسكت التذكرة:

– إنكِ جد لطيفة، شكرًا.

وابتسمت..

فأرسلت لها لوسيل ابتسامةً غير واثقة.

وابتعدت..

وتابعت السير على الأرصفة حتى ميدان "الكونكورد" ثم عبرت إلى شارع ليل.

وتذكرت فجأةً أنها سارت على قدميها في نفس الطريق ليلة تعرفها على أنطوان.

ولكن ذلك كان في بداية الربيع– وكان هذا الشاب مجهولًا، وقد مشيا معًا وسط الليل الدافئ، يحتقران التاكسيات لأسبابٍ أخرى غير الأسباب التي تدفعهما الآن.

وخطر لها أن تتوقف عن هذا اللوم.

ماذا يفعلان الليلة؟

عليهما أن يتعشيا عند لوكاس مولدر، أحد أصدقاء أنطوان، إنه صحفي ثرثارٌ مضطرب الأعصاب مغرمٌ بالتجديدات.

وهو يسلي أنطوان، وكان يمكن أن يسليها أيضًا لولا أن زوجته مغرمةٌ بأن تحدث لوسيل في أشياء متعددة تنتهي ختامًا إلى أمراض النساء، وأكثر من هذا؛ فإن نيكول الزوجة مغرمة بالتدبير، فكانت تطبخ ألوانًا اقتصاديةً عسيرةً على الهضم.

وقالت لوسيل وهي تسير:

"إنني أفضِّل لو ذهبت لتناول العشاء في "محطة بلازا" لأتناول مع البارمان هامبورجر وسلاطة وشيئًا مثلجًا بدلًا من الشوربة السميكة والراجو الفظيع والجبنة الجافة، وثلاث حبات من الفاكهة ينتظرونني، أظن أن الأغنياء فقط هم الذين يستطيعون الأكل...".

وانتقلت قليلًا عن هذه الصورة، وتخيلت بار "بلازا" نصف الممتلئ، في البار، ورؤساء الخدم منهمكون وهي جالسة وحدها، تقرأ جريدة في غير اهتمام، وتشاهد الأمريكيات لابسات فراء "الفيزون"، ولاحظت وهي تحس بوخزة صغيرة في القلب أن هذا الحلم لم يكن فيه أنطوان، وأنها تخيلت نفسها بدونه، لقد انقضى وقت طويل لم تتناول وجبتها وحيدة، ولكنها أحست بالذنب، وجرت في شارع ليل، وصعدت مسرعةً على السلم.

كان أنطوان ممددًا على السرير مع "الموند"، ويبدو أنها أصبحت من نصيب رجال يقرأون "الموند"، فوقف وارتمت بين ذراعيه.

أحست بدفء، وشمت رائحة تبغه، كان ضخمًا وهو يتمدد على

السرير، ولم تتعب من جسده النحيل وعينيه الفاتحتين ويديه القويتين وهما تمشطان شعرها المبتل.

وغمغم بشيء عن جنون النساء اللاتي يتهن تحت المطر.

وقال:

– والفيلم؟

فقالت:

– كان رائعًا.

– اعترفي إذن أنني كنت محقًا لأرسلك.

وقالت:

– أعترف.

كانت تقف في الحمام وهي تعترف، وتمسك في يدها اليمنى بفوطة ورأت في المرآة ابتسامة غريبة صغيرة، وتوقفت لحظة، ثم مرت برفق على المرآة بالفوطة، كأنها تريد أن تمحو شريكًا تريد أن يصبح معها شريكًا متآمرًا.

الفصل التاسع عشر

انتظرت أنطوان في بار صغير بشارع ليل؛ حيث اعتادت أن تلتقي به في السادسة والنصف من كل مساء، وأخذت تثرثر مع الجرسون، واسمه إيتين، وكان شابًا جميلًا وثرثارًا حتى أنطوان أخذ يشك في أنه يضمر عاطفة ما تجاهها، وكان إيتين يتطوع بإعطاء لوسيل النصائح الخاصة بسباق الخيل، وكانت النتيجة دائمًا مفجعة، حتى إن أنطوان ألقى بنظرة شك حين وصل.. ليس شك الغيرة، ولكن شك الخوف من كارثة مالية جديدة، وكانت لوسيل ذلك اليوم مشرقة النفس.

وناما متأخرين، وظلا طوال الليل يرسمان المشاريع المعقدة والمنتصرة، لم تعد تتذكرها فيما بعد، ولكنها مشاريع خيالية وصلت بها إلى شاطئ أفريقي، ولبيت ريفيٍّ نموذجي بالقرب من باريس.. وكان إيتين يحدثها بعين تلمع بالأمل عن حصان اسمه "إمبرواز الثاني"، فوزه مضمون في سباق سان كلو، وكان يمكن أن تنتهي الورقة ذات الفرنكات الألف التي تحتفظ بها لوسيل في جيبها لتصبح من كبار الملاك، لولا وصول أنطوان.

عانق أنطوان لوسيل، وجلس ليطلب كأسين من الويسكي، وكان هذا وحده علامة على الاحتفال لأن اليوم كان ٢٦ من الشهر.

وقالت لوسيل:

– ماذا حدث؟

– لقد حدثت سيريه. (ولم تفهم لوسيل، فقال لها إنه مدير الجريدة).. ويوجد مكان لك في الأرشيف.

– في الأرشيف؟!

– نعم.

– إن العمل مسلٍ جدًا وليس مرهقًا، وستحصلين على مائة ألف فرانك في البداية.

وحدجته لوسيل بنظراتها، فقد تذكرت تمامًا ما تحدثا عنه في الليلة الماضية، لقد اتفقا على أن حياة لوسيل ليست لائقة، وأن عليهما أن يفعلا شيئًا، ولذلك استقبلت فكرة هذا العمل بانقباض؛ لأنها كانت قد تخيلت – أدبيًا– صورة أخرى، تخيلت نفسها تصعد السلم إلى أعلى، وتصبح صحفية لامعةً تتحدث عنها باريس.

طبيعي أنها ستتحمل في سبيل ذلك كثيرًا من المتاعب وستبذل جهدًا مضنيًا، ولكنها كانت تحس أن في داخل نفسها كثيرًا من العناد والطموح والروح الفكهة التي تؤهلها للوصول، وتخيلت أنهما سيمتلكان شقةً أنيقةً، تشتريها لهذه الجريدة، لأنها ستضطر إلى استقبال كثير من الضيوف، وأنهما سيهربان من هذه الحياة شهرًا على الأقل كل سنة على سفينة تجوب البحر الأبيض.

وقد استمرت لوسيل في مشروعها الحماسي تحاول إقناع أنطوان الذي كان يتشكك في البداية ثم أخذ يهتم؛ لأن لوسيل قادرة على إقناع أي شخص حين تتحدث عن مشاريعها، وخاصة مشاريعها الجنونية، وبالذات

إذا كانت تتناقض مع طبيعتها، كهذا المشروع الأخير، ولكن ماذا قرأت وماذا شربت حتى خرجت بهذا المشروع؟ والآن، لم تعد تحس بالعناد ولا الطموح ولا الرغبة في أي شيء.. سوى أن تقتل نفسها.

وقال أنطوان:

– بالنسبة لهذا النوع من الجرائد، فالمرتب حسنٌ جدًا.

وكان يحس بالانبساط من نفسه.

ونظرت إليه برقة، كان لا يزال تحت تأثير خطبها، ولا شك أنه طوال النهار أخذ يقلب الدنيا والأرض والسماء؛ فمن الصعب الحصول على مثل هذه الوظيفة في باريس؛ لأن هذا النوع من النساء كثير، إنهن يحسسن فجأةً بالانهيار العصبي بسبب الفراغ، ويرغبن في أن يدفعن بعض المال، لينظفن الباركيه، على شرط أن يكون الباركيه في إحدى دور النشر أو بيوت الأزياء أو في جريدة من الجرائد.

وهذا هو سيريه مستعد ليدفع لها مرتبًا وهي التي تحب الفراغ، "كم إن الحياة غبية".

وحاولت أن تبتسم لأنطوان.

وقال:

– لا تبدو عليك السعادة.

وقالت وهي قانطة:

– يبدو أن كل شيء جميل.

فنظر إليها نظرة المتسلي.

فقد كان يعلم أنها بدأت تأسف لقراراتها المقبضة، وأنها لا تجرؤ على أن تعترف له بذلك.

ولكنه كان يحس حقًا بأنها لا تستطيع الحياة بهذه الطريقة دون أن تحس بالملل، وقد ظن أن هذه الفرانكات المائة ألف، إذا أضيفت إلى مرتبه، ستوفر للوسيل حياة أكثر يسرًا.

وبتفاؤل الرجال، أخذ أنطوان يتخيل أن لوسيل سوف تشتري، وهي في غاية السرور، فساتين صغيرة كل شهر، وطبيعي أنها لن تكون ممهورة بتوقيع أحد كبار الخياطين، ولكنها ستليق عليها تمامًا، لأن جسمها معتدل القوام، وسوف تركب التاكسيات وستقابل الناس، وستهتم قليلًا بالسياسة وبالعالم عمومًا.. وفي النهاية، سوف تهتم بالآخرين.

ولا شك أنه يأسف، لأنه لن يعود إلى بيته كما يعود الحيوان إلى مخبئه؛ فيجد امرأة لا تحيا إلا على القراءة والحب، ولكنه على أي حال كان يحس إحساسًا غامضًا بالطمأنينة.

لأن في هذه الحياة الثابتة ازدراءًا للمستقبل وتقديسًا للحاضر كان يخيفه ويغضبه، كأن هذه الحياة مجرد ديكور في ستوديو سينمائي سينتهي الأمر بإحراقه عند ختام التصوير.

وقالت لوسيل:

– ومتى أبدأ؟

وابتسمت ابتسامة حقيقية.

إنها تستطيع أن تبدأ المحاولة.

ولقد حدث لها أن عملت في صدر شبابها، ولا شك أنها ستحس بالملل، ولكنها قررت أن تخفي ذلك عن أنطوان.

– في أول ديسمبر، خلال خمسة أو ستة أيام، هل أنت راضية؟

لقد شجعت في نفسه بعض نواحي السادية.

ولكن كان يبدو عليه مظهر البراءة والاقتناع.

فهزت رأسها بصراحة:

– راضية جدًا، إنك على حق، لا يمكن الاستمرار على مثل هذه الحال.

ومال عليها، وقبلها عبر المائدة مندفعًا رقيقًا قبلةً تؤكد لها أنه يفهمها.

وابتسمت، وخده إلى جانبها، وضحكا عليها معًا.

وأحست بالارتياح لأنه استطاع أن يخمن ما في داخلها، لأنها كانت تكره أن يخطئ في شأنها، وإن كانت قد احتفظت ببعض الحقيقة الغامضة؛ لأنه رتب الأمور على هذه الطريقة.

وفي المساء، أخذ أنطوان –في بيتها– والقلم في يده يحسب ألوانًا من الحسابات المتفائلة، بدأ بالطبع بالإيجار والتليفون وبالمسائل المتعبة، ولوسيل –بالفرنكات المائة ألف– ستشتري فساتينها، وتدفع أجور انتقالاتها وثمن وجبات الغداء، ويوجد كانتين رائع في جريدته، وتستطيع الغداء منه.

وبقيت لوسيل فوق سريرها تسمع هذه الأرقام وهي مذهولة، كادت تقول إن الفستان من عند ديور يكلف ثلاثمائة ألف فرانكًا، وإنها تكره المترو -حتى ولو كان طوالي- وإن مجرد ذكر كلمة "كانتين" تطلق رجليها للفرار.

إنها تحس بأنها متحذلقة تحذلقًا نهائيًا ومتطرفًا.

ولكنه حين انتهى من السير إلى الأمام والخلف واستدار إليها يبتسم دون قرار، وكأنه لا يصدق نفسه، لم تستطع سوى أن تبتسم بدورها.

كان كالطفل وهو يرتب "حسابات البقالين" كما يفعل الأطفال، ويضع الميزانية كما يفعل الوزراء، كان يحب اللعب بالأرقام، والأرقام لعبة الرجال.

ولكن ماذا يهم لو اقتصرت حياتها على معادلات خيالية، طالما أنه هو الذي يضع لها تلك المعادلات؟!

الفصل العشرون

كان يبدو عليها كأنها أقامت في مكتب الجريدة لأعوام طويلة، مع أنها لم تدخله إلا منذ خمسة عشر يومًا، وكانت الغرفة فسيحةً رماديةً مزدحمةً بالمكاتب والدواليب والأدراج، ونافذتها الوحيدة تطل على شارع صغير من شوارع المال (حي سوق الخضار). كانت لوسيل تعمل مع سيدة شابة تدعى "ماريان"، حبلى في شهرها الثالث، لطيفة المعشر تتقن عملها، تتكلم بنفس العناية الرقيقة عن مستقبل الجريدة أو مستقبل طفلها القادم، وكانت تؤمن بأنه سيكون ذكرًا، فكان يحدث أن تسمعها لوسيل وهي تتمتم بإحدى جملها: "إنه يتحدث عن نفسه"، أو "إن مستقبله عظيم". وكانت لوسيل لا تدري إذا كانت ماريان تتحدث هذه المرة عن مولودها "جيروم" أو عن العمل.

كانا يقصان معًا قصاصات الجرائد ويبحثان عن الطلبات في أرشيف الهند أو البنسلين أو جاري كوبر، ثم يعيدان النظام إلى هذه الدوسيهات حين تعاد إليهما، وقد أصابها الاضطراب، لكن ما كان يقلق لوسيل هو هذا الجو الجاد الذي يسيطر على تلك المؤسسة، وهذا الحس الملعون بالفعالية واللذان كانا يصدمان أذنيها.

وبعد ثمانية أيام من وصولها، حضرت اجتماعًا عامًا للمحررين كان مزدحمًا بالنحل الذي يطن بأفكار مكررة، وقد دُعي إلى الاجتماع من باب المغالطة ذلك النحل العامل في الأرشيف والبدروم، وخلال ساعتين، اشتركت

لوسيل مذهولة في كوميديا إنسانية حامية يحركها الإحساس بالامتلاء والخطورة والسطحية والاهتمام العام بضرورة زيادة التوزيع.

ولم يقترف ثلاثة رجال فقط شيئًا من هذه الحماقات، الأول لأنه كان لا يتوقف عن الغضب، والثاني لأنه كان المدير، والثالث لأن بعض مخايل الذكاء كانت تبدو عليه، وقصت لوسيل على أنطوان قصة الاجتماع بما يشبه الملحمة، وضحك كثيرًا، ولكنه قال لها إنها تبالغ، وإنها ترى كل شيء أسود اللون، لكنها كانت تحس بالملل الشديد، ولم تستطع أن تكمل الشطيرة التي حاولت في الظهر أن تأكلها في الكانتين (للمرة الأولى والأخيرة)، فذهبت إلى مقهى قريبٍ تقرأ إحدى الروايات.

وفي السادسة والنصف وأحيانًا الثامنة (عزيزتي لوسيل، إنني آسفةٌ لتأخرك في العمل، ولكنك تعلمين أننا بعد غد سنقفل)، وكانت بعد ذلك تبحث بلا جدوى عن تاكسي ثم تنتهي مقهورةً إلى ركوب المترو، وتقف في أغلب الأحيان، لأنها لا تريد القتال على مقعد للجلوس.

وكانت تنظر إلى الوجوه المجهدة القلقة المتعبة لزملائها في المركبة، فتحس أن ثورة تضطرم في أعماقها، من أجلهم، أكثر من ثورتها لنفسها؛ لأنها كانت تتخيل أن هذا ليس سوى كابوس، وأنها سوف تتيقظ منه، وكان أنطوان ينتظرها في بيتها ويحتضنها بين ذراعيه؛ فتعثر أخيرًا على الإحساس بالوجود.

وفي ذلك اليوم، أحست أنها لم تعد تحتمل المزيد؛ في الساعة الواحدة ذهبت إلى مقهىً وطلبت –لدهشة الجرسون– كوكتيلًا، لأنها لم تكن تشرب، ولدهشة الجرسون أكثر، طلبت كأسًا ثانية، كان عليها أن تدرس أحد

الدوسيهات، فأخذت تقلب في داخله ثم تثاءبت بعد دقيقتين؛ فقد قيل لها أنها تستطيع أن تكتب تحته ثلاثة سطور، وإذا حازت هذه السطور الرضا فإنها قد تنشر، ولكنها أحست أنها لا تستطيع شيئًا في ذلك اليوم.

ولم يعد ممكنًا –فوق ذلك– أن تعود إلى ذلك المكتب الرمادي على الفور وأن تستأنف تمثيل دورها الصغير: دور الفتاة النشيطة أمام الناس يمثلون أدوار المفكرين أو الحركيين، كانت الأدوار مملةً بائخةً، أو على الأقل، كانت المسرحية غير مناسبة، ولو أن أنطوان كان محقًا فيما يدعيه من أن هذه المسرحية التي تمثلها مسرحية لائقة، فهي على الأقل قد كتبت لآخرين غيرها، إن أنطوان مخطئ، وقد أدركت خطأه على ضوء الكأسين؛ فالخمر تملك أحيانًا مصابيح كاشفةً لا ترحم، وحاسمةً، وقد كشفت لها هذه المصابيح –الآن– آلاف الأكاذيب الصغيرة التي تكذبها على نفسها كل يوم لتقنع نفسها بأنها سعيدة، إنها تعسة، وهذا ظلم.

غمرتها موجة قوية من الإشفاق على نفسها، وطلبت كأسًا ثالثة.

همس الجرسون بلطفٍ في أذنها يسألها: "إذا ما كان هناك شيء لا يسير على ما يرام"، وردت متجهمة:

– كل شيء.

وقال لها إن بعض الأيام تكون كذلك، ومن الأفضل أن تطلب شطيرةً؛ لأنها قد تصاب في صدرها كما حدث لابن عمه الذي يعيش فوق الجبل للاستشفاء منذ ستة أشهر، ولاحظ النادل أنها لم تأكل شيئًا، وبدأ يهتم بها، وهي التي كانت تقول له بالكاد صباح الخير أو مساء الخير. وهكذا، فإن

واحدًا على الأقل يحبها، وأحست بالدموع فجأةً في مآقيها؛ فالخمر تهيج العاطفة، كما تنير البصيرة.

وطلبت شطيرةً، وفتحت -بتعقل- الكتاب الذي أقرضه لها أنطوان في الصباح، كانت رواية "النخيل المتوحش" لفوكنر، وقادها حظها بسرعة إلى المونولوج الذي يقوله هاري لنفسه:

"الاحترام.. إنه المسئول عن كل شيء، لقد فهمت منذ بعض الوقت أن الدعة هي التي تشمل كل فضائلنا وكل صفاتنا.. فالتفكير الهادئ والمساواة في المزاج والكسل، وإتاحة الهدوء للآخرين والهضم الجيد عقليًا وجسمانيًا: أن الحكمة في أن يركز المرء اهتمامه على لذائذ الجسد كالأكل والشرب وحمامات الشمس، وليس أكثر من ذلك. لا شيء يفضل في العالم أن نعيش الوقت القصير الذي نمنحه، أن نتنفس وأن نعيش، وأن نعرف أننا نعيش".

وتوقفت لوسيل عن القراءة، وأقفلت كتابها، ودفعت الحساب للجرسون، ثم خرجت، ذهبت مباشرةً إلى الجريدة، وقالت لسيريه إنها لا تستطيع مواصلة العمل، وطلبت منه ألا يخبر أنطوان بقرارها، ولم تقدم له تفسيرًا لكل ذلك.

وأحست أنها تقف مستقيمة القوام وأنها تبتسم أمامه، وهو ينظر إليها مذهولًا، وغادرت الجريدة من جديد، ونادت تاكسيًا، وذهبت إلى صائغ في ميدان "فندوم"، وباعت العقد الذي أهداه إليها شارل بمناسبة رأس السنة بنصف ثمنه، وطلبت من الصائغ صورة مقلدة من العقد وأبت أن تشارك

البائعة ابتسامتها "المتآمرة"، وخرجت وهي تحس بالحرية، وأمضت نصف ساعة في متحف "جي دي يوم"– وهي تشاهد لوحات التأثيريين، وأمضت ساعتين في السينما، وحين عادت أعلنت لأنطوان أنها بدأت تتعود على العمل في الجريدة.

وأصبحت بهذه الطريقة لا تحس –لبعض الوقت– بأي قلق، إنها تحس بالأمان، إنها على أي حال تفضل أن تكذب عليه بدلًا من أن تكذب على نفسها.

وأمضت لوسيل خمسة عشر يومًا رائعة؛ فقد منحتها باريس نفسها.. بين الكسل، ومع المال اللازم لاستغلال هذا الكسل، عاشت الحياة التي عاشتها دائمًا، ولكنها عاشتها هذه المرة خلسة، وطبيعي أن "هذا الهرب من المدرسة" ضاعف من لذائذها الصغيرة.

واكتشفت في الدور الأول لأحد مطاعم الضفة اليسرى لنهر السين بارًا ومكتبةً "في نفس الوقت"، فأخذت تمضي إليه بعد الظهيرة: تقرأ، أو تحادث شخصياتٍ غريبة مضطربة في أغلب الوقت، مخمورة كانت تلاحقها.

إحدى هذه الشخصيات، عجوز نبيل يزعم أنه أمير، دعاها إلى مطعم "الريتز"، فأمضت ساعة كاملة في الصبح تعتني بملبسها، وهي تبحث أي "التاييرات" التي أهداها لها شارل يناسب آخر صيحة في الموضة، وأمضت غداءًا غير عادي ورائعًا أمام رجل يكذب عليها أكاذيب متجهمة، وهو يحكي لها قصة حياة مستوحاة من تولستوي ومالرو، فأخذت تبادله الكذب من باب اللياقة، وحكت له قصة حياة مستوحاة من سكوت فتزجيرالد.

وهكذا.. هو أمير روسي ومؤرخ، وهي وريثة أمريكية (أكثر ثقافة من المعتاد).

وكانا –هما الاثنان– محبوسين، يحيطهما الناس بالحب، يطير رؤساء الخدم من حول مائدتهما، وكأنهما خرجا لتوهما من سطور قصة لبروست، هذا الكاتب الذي يعرفانه جيدًا.

ودفع الرجل حسابًا لا شك أنه سيصيب ميزانية الشهر القادم إصابة مباشرة، وافترقا في الرابعة، وهما يتبادلان الإعجاب.

وحين عادت أخذت تقص على أنطوان عشرات القصص حول العمل في الجريدة، وكانت الأقاصيص تضحكه.

كانت تكذب عليه بنفس القدر الذي تحبه به، وبنفس القدر الذي تحس به بالسعادة، وبنفس القدر الذي تحس بالرغبة في أن تقاسمه هذه السعادة.

لا شك أن أنطوان سيكتشف كل شيء ذات يوم.

زميلتها السابقة ماريان –والتي كاشفتها بالأمر– ستخبره في الهاتف أنها هجرت العمل منذ شهر، ولكن هذا التهديد نفسه كان يعطي لأيامها مذاقًا غير متوقع.

كانت تشتري الكرافاتات لأنطوان، والكتب الفنية لأنطوان، والأسطوانات لأنطوان، وكانت تتحدث عن القروض التي تحصل عليها من الجريدة عن أي شيء.

كانت مبتهجة، وكانت تعكس بهجتها على أنطوان.

إنها تستطيع الحياة آمنة لمدة شهرين بثمن العقد.

شهران من الكسل والارتخاء والأكاذيب.

شهران من السعادة.

أيام متراخية متشابهة ممتلئة بوجودها مع إنها خاوية تمامًا، نشيطةً مع إنها هادئة تمامًا.

وكانت روحها تتحرك في زمان ليس له حدود ولا عودة ولا هدف.

وكانت تسترجع أيام صباها التي كانت تكره فيها السوربون، واستعادت رائحة "الخروج على القانون" التي كانت فقدتها منذ زمن طويل.

لم تكن هناك نسبة بين الفراغ الذي كان يتركه شارل لها، وذلك الفراغ الذي تسرقه من أنطوان.

وأي ذكرى أجمل من تلك الذكرى التي تخلعها حياة المراهقة، من كذبة عذبة كبيرة على الآخرين، وكذبة على المستقبل، وأحيانًا على النفس.

إلى أي حد كانت تكذب وهي تجري أمام ما يبدو أنه سيصبح كارثة محققة، حين يشتعل غضب أنطوان، وحين تفقد ثقة أنطوان، وحين يضطران إلى الاعتراف معًا أنها لا تستطيع الحياة معه هذه الحياة الطبيعية المتوازنة السهلة إلى حد ما والتي يقترحها عليها؟

كانت تعلم تمامًا أن إخفاء هذه الأخطاء لا يعني مطلقًا أنها قررت إصلاحها؛ ففي داخلها شيء تقرر، ولكن على أي شيء استقر؟ إنها لا

تدري، والحق أنها قررت ألا تفعل إلا ما يرضيها، ولكن مثل هذا الاعتراف يصعب إعلانه إذا كان الإنسان يحب شخصًا آخر.

وكانت في كل الليالي تجد حرارة أنطوان وضحكاته وجسده، ولم تكن تحس في أي لحظة بالرغبة في خيانته، ولم تكن تستطيع أن تتخيل الحياة بدونه كما لا تستطيع تخيل الحياة في أحد المكاتب.

وبدأ الجو يزداد برودة؛ فانتقلت إلى حياتها الراكدة.

وكانت تنهض في نفس الوقت الذي ينهض فيه أنطوان، وتنزل معه ليتناولا القهوة، وتصحبه أحيانًا إلى دار النشر ثم تذهب رسميًا إلى عملها الشاق، وواقعيًا تعود إلى غرفتهما؛ فتخلع ملابسها، وتعود إلى الاستلقاء، فتنام حتى الظهيرة، وبعد الظهر تقرأ وتسمع الأسطوانات، وتفرط في التدخين، ثم في السادسة ترتب سريرها وتخفي آثار مرورها، وتذهب إلى البار الصغير في شارع ليل، تنتظر أنطوان، أو –من باب السادية– تذهب إلى بار "بون روايال" لتنتظر الساعة الثامنة، ثم تعود –وهي مجهدة!– إلى شارع دي بواتييه، وهناك ينتظرها أنطوان منذ مدة، فيعتب عليها ويقبّلها فتتمرغ في هذه الرقة وهذه العذوبة دون أدنى ندم، على أي حال كان لا بد لها من أن تشكو من أنها اضطرت أن تعقد الحياة بهذه الحياة لرجل بسيط مثل أنطوان، كان يمكن أن تقول له في بساطة: "لقد تركت الجريدة".

وكان يمكن ببساطة أن تقلع عن هذه التمثيليات الصامتة، ولكن طالما أن هذه الحركات تطمئن أنطوان، فلا بأس من القيام بها، بل كانت أحيانًا تحس أنها كالقديسة.

وفي اليوم الذي اكتشف فيه أنطوان الحقيقة اضطربت غاية الاضطراب.

قال:

– لقد طلبتكِ ثلاث مرات بعد الظهر.

وألقى بمعطف المطر على الكرسي دون أن يحرجها، وبقي واقفًا أمامها لا يتحرك، فابتسمت:

– كان يجب أن أترك العمل ساعتين كاملتين، ألم تخبرك ماريان بذلك؟

– نعم. ومتى تركت الجريدة؟

– منذ ساعة.

– آه؟

كان هناك شيء في هذه "الآه" أقلق لوسيل، فرفعت إليه نظرها، و لكن أنطوان لم ينظر إليها.

قال:

– كان عندي موعد بالقرب من الجريدة، وطلبتك لأقول لك إنني سأمر عليك لآخذك، ولكنك لم تكوني هناك، وحضرت في الخامسة والنصف مباشرة، هذا كل شيء.

فردت تلقائيًا:

– كل شيء!

– إنهم لم يروكِ منذ ثلاثة أسابيع، ولم يدفعوا لك ولا مليمًا واحدًا.

إنني...

وكان حتى هذه الكلمة الأخيرة يتحدث بصوت خفيض، ولكن صوته ارتفع فجأة.

وانتزع كرافتته بشدة، وقذفها تجاهها:

– من أين أتت هذه الكرافتة الجديدة؟ وهذه الأسطوانات؟

أين تناولت غداءك؟

وقالت لوسيل:

– انتظر، ولا تصرخ.. إنك لا تفكر في أي حال في أنني كنت أتجول في الشوارع.. لا تكن سخيفًا..

وكانت صفعة أنطوان مفاجئةً، فلم تتحرك.

وظلت تحمل هذه الابتسامة الصغيرة المطمئنة التي كانت قد رسمتها على شفتيها منذ البداية، ثم أحست بالحرارة فوق خدها، فوضعت عليه يدها تلقائيًا.

لكن هذه الحركة الطفولية ضاعفت من غضب أنطوان؛ فقد أصابه هذا الغضب الطويل الأليم الذي يصيب الذين لا يكترثون بشيء، ذلك الغضب الذي يؤلم القاتل والقتيل.

– لم أعد أدري ماذا فعلت، لقد كذبت علي باستمرار منذ ثلاثة أسابيع، هذا هو كل ما أعرفه.

ولفهما الصمت، وفكرت لوسيل في الصفعة، وتساءلت في قرارة نفسها في مزيج من الغضب والمتعة: ماذا يليق بها أن تفعل؟ فقد كان غضب أنطوان المشتعل يبدو لها غير متناسب مع الوقائع.

وقال أنطوان:

– إنه شارل.

فنظرت إليه مذهولة:

– شارل؟

– نعم، شارل، الكرافتات والأسطوانات وشموعك وحياتك.

وفهمت أخيرًا، وأحست لحظة بالرغبة في الضحك، ثم رأت وجهه المقلوب ولونه الحائل، وأحست بالخوف المريع من أن يضيع منها.

وقالت بسرعة:

– ليس شارل، إنه فوكنر، لا، اسمع، سأحكي لك.. النقود.. إنها المجوهرات، لقد بعتها.

– ولكنها كانت معك أمس.

– إنها مزيفة.. انظر إليها، ضع أسنانك عليها..

لم يكن الوقت مناسبا لتنصح أنطوان بأن يعض بأسنانه المجوهرات، ولا مناسبًا لتتحدث عن فوكنر.

لقد كانت ناجحة حين كانت تكذب أكثر من نجاحها حين تصدق، وهو لا يزال مذهولًا مشتعلًا بالغضب.

– لا أستطيع الاستمرار في العمل..

– بعد أسبوعين..

– نعم، بعد أسبوعين، لقد ذهبت إلى دوريس– الصائغ في ميدان فندوم، وبعت مجوهراتي، واشتريت نسخة مزيفة، هكذا.

– وماذا كنت تصنعين طوال اليوم؟

–كنت أتنزه، وأجلس هنا –كما كنت أفعل من قبل–.

وثبت عينيه عليها وهو يرغب في تحويل نظره عنها، ولكن من المتفق عليه في مثل هذه المشاهد أن تحويل النظر يعني أن هناك كذبة؛ فاضطرت أن تعلق نظرها بنظره، وأصبحت نظرته الصفراء داكنة، وفكرت للحظة، أن الغضب يزيده جمالًا، وهو شيء نادر جدًا.

– لماذا أصدقك الآن؟

إنك تكذبين علي منذ ثلاثة أسابيع؟

وقالت متعبة:

– لأنه لا يوجد شيء آخر أقوله لك.

وتحولت عنه.

واستندت بجبهتها على النافذة، فرأت بغتة قطة تسير بغير اكتراث على الإفريز، وهو عدم اكتراث غير معتاد في مثل هذا البرد.

واستمرت في صوت هادئ:

– لقد قلت لك إنني لم أخلق لمثل هذا.. مثل هذا النوع من العمل، كان يمكن أن أموت، أو أصبح قبيحة، كنت تعسة يا أنطوان، أهذا هو كل ما تلومني من أجله؟!

– ولماذا لم تخبريني؟

– لقد كنت راضيًا لأنني أشتغل، ولأنني أهتم بالحياة، وكان لابد أن أتظاهر بذلك.

وتمدد أنطوان فوق السرير.

أمضى ساعتين من اليأس.. من الغيرة التي لا تنتهي، وأحس بالإرهاق الشديد.

كان يصدقها، وكان يعلم أنها تقول الحقيقة، ولكن هذه الحقيقة كانت بقدر ما تريحه تذيقه مرارة بغير حد.

إنها وحيدة، وستبقى دائمًا وحيدة..

وتساءل لحظةً واحدةً، ألم يكن من الأفضل لو أنها خانته، فينتهي الموقف، ونطق باسمها بصوت تائهٍ يصدر من بعيد:

– لوسيل.. ألا تثقين بي مطلقًا؟

فمالت عليه بعد ثانية واحدة.

وقبّلت جبهته وعينه، وغمغمت قائلة إنها تحبه، وإنها لم تحب أحدًا غيره، وإنه مجنون ووحشي وفظ.

وتركها تقول ما تشاء، بل كان يبتسم ابتسامة خافتة؛ فقد كان اليأس يحاصره تمامًا.

الفصل الحادي والعشرون

وبعد انقضاء شهر عادت لوسيل إلى حياتها– على نحو شرعي.. ولكنها كانت تحس بالضيق حين كان أنطوان يعود؛ فتجيبه كلما سألها عما فعلته:

– لا شيء.

كان يسألها نفس السؤال تلقائيًا دون حدة، وأحيانًا تلحظ نوعًا من الحزن المضطرب في عينيه، نوعًا من عدم الثقة، كان يحبها بقوة وبغضب، وكان حين يتمدد على ظهره وينظر إليها يخيل إليه أنه ينظر فلا يراها، وأنه يرى مكانها قاربًا يمخر البحر أو سحابة تسيرها الرياح، شيئًا يتحرك ويكاد يختفي، ولكنه لم يحبها قدر ما يحبها الآن، وكان يعترف لها بذلك فكانت تهوي بجواره، وتغمض عينيها وتبقى صامتة، ويقولون إن الناس ينسون ما يقولون، ولكن أناسًا كثيرين ينسون ماذا يعني الصمت من جنون وجموح وسخف.

كانت ترى أمامها شذراتٍ من طفولتها تمر من تحت جفنيها المقفلين، وترى وجوه بعض الرجال الذين نسيتهم، وهذا الوجه الأقرب، وجه شارل، وتذكرت فجأةً كرافتة أنطوان الملقاة على سجادة ديانا، أو شكل شجرة ضخمة من أشجار مطعم بريكتلان.

وبدلًا من أن تمثل هذه الذكريات مجموعةً موحدةً وغامضة تستطيع أن تسميها –ببهجة– ذكريات حياتها حين كانت سعيدة، أصبحت هذه الذكريات مجموعة غامضة تثير القلق، على الأقل، الآن لقد كان أنطوان محقًا، ماذا يحدث لهما؟ على أي شيء يسبحان؟ ماذا سيحدث لهما؟ إن هذا

السرير الذي كان أسعد القوارب في باريس أصبح لوحًا من الخشب الذي يعوم إلى غير هدف، وهذه الغرفة التي اعتادت عليها أصبحت ديكورًا تجريديًا.

لقد أدخل أنطوان الإحساس بالمستقبل في رأس لوسيل، وبهذه الطريقة، جعل المستقبل مستحيلًا عليهما، وتيقظت ذات صباح من يناير، وهي تحس بآلام فظيعة في قلبها، كان أنطوان قد ذهب لأنه أحيانًا أصبح يذهب دون أن يوقظها، كأنها أصبحت مريضة في فترة النقاهة، ذهبت إلى الحمام وأحست بالمرض دون أن تندهش لذلك.

كانت الجوارب التي غسلتها في الماء قد جفت فوق المدفأة، وحين نظرت إليها، وتذكرت أنها لم تعد تملك زوجا ثانيا من الجوارب، وأن الغرفة أصبحت، مثل الحمام، وأنها لا تمتلك أي شيء، قررت ألا تحتفظ بطفل أنطوان.

إن ما بقي لها أربعة آلاف فرانكًا، وهي حبلى.

لقد هاجمتها الحياة وغلبتها على أمرها، هاجمها هذا الذي يهاجم زميلاتها من راكبات المترو، هذا الذي يصفه المؤلفون حين يقولون: "اللامسئولية تعاقب في النهاية".

إن أنطوان يحبها، وهو مستعد أن يلعب دور الأب على الطريقة التي يرغبها، لو أنها قالت له:

– لقد حدث لنا شيء رابع.

فلسوف يعتبر الطفل القادم حادثًا سعيدًا.

ولكنها لا تملك هذا الحق.

لأن هذا الطفل سيقلب حريتها ويفقدها سعادتها.

ثم إنها تعلم أنها خدعت أنطوان، وقادته إلى هذه العاطفة الجامحة، وكأنها تريد أن تقوده إلى امتحان عسير.

إنه مستعد للاستسلام لهذا الحادث، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حادث.

إنها تحبه كثيرًا أو لا تحبه بالقدر الكافي، ولكنه لا يرغب هذا الطفل، إنها لا ترغب أحدًا سواه، هذا السعيد الأشقر صاحب العينين الصفراوين، الذي يمكن أن يتركها متى يشاء.

ولعل أمانتها الوحيدة هي أنها وهي ترفض تحمل أي مسئولية لا تريد أن تلقي بمسئوليتها على كتف أحد آخر، فليس الوقت مناسبًا لكي تستسلم للأحلام في أنطوان الصغير، وهو في الثالثة من عمره يجري على البلاج، ولا في أنطوان الكبير، وهو يعلم بقسوة واجبات ابنه المدرسية.

إنها اللحظة المناسبة لكي تفتح عينيها، لكي تقارن بين حجم الغرفة وحجم سرير الطفل، وبين أجرة المربية ومرتب أنطوان، لا شيء يتفق مع شيء.

هناك من النساء من يستطعن التصرف، لكنها ليست من هؤلاء، كما أنها ليست اللحظة المناسبة لكي تحلم بنفسها.

وحين عاد أنطوان صارحته بمتاعبها.

وبهت لون أنطوان قليلًا، ثم احتواها بين ذراعيه.

كان يتحدث بصوت حالم، وأحست أنها تضغط على فكيها بطريقة غبية.

– هل أنتِ متأكدة أنك لا تريدينه؟

وقالت:

– لا أريد سواك.

ولم تحدثه عن المصاعب المالية.

كانت تخشى أن تجرحه.

وخطر له وهو يمر بيده على شعره، لو أنها رغبت في الإبقاء على الطفل، لأصبح سعيدًا أن يكون له منها طفل، لكنه سيكون ثمرة الهرب، ولهذا سيحبه، ولا يستطيع أن يلومها من أجله.

فحاول محاولة أخرى.

– يمكننا أن نحاول الزواج، وأن ننتقل من هنا.

وسألته:

– وإلى أين نذهب؟

إنني أظن أيضًا أن الطفل قيد، ولسوف تعود لتجدني مضطربة، مضطربة المزاج، سوف..

- ماذا تظنين أن يفعل الآخرون؟

- إنهم لا يفعلون مثلنا.

وابتعدت عنه.

وكان هذا يعني أنهما يصممان بعزم شديد شديد على السعادة.

وفي المساء خرجا معا، وأفرطا في الشراب..

وفي الغد، طلب أنطوان "عنوانًا" من أحد الأصدقاء.

الفصل الثاني والعشرون

كان وجه الطبيب قبيحًا صارمًا ينطق بالاحتقار، ولم تدر لوسيل إذا كان الطبيب يحتقر نفسه، أو يحتقر هؤلاء النساء اللائي ينقذهن –بطريقة أو بأخرى– منذ عامين، من أجل مبلغ إجمالي يصل إلى ٨٠ ألف فرانك، كان يأتي فعلته في بيوتهن، ودون تخدير، ولا يعودهن إلا إذا اقتضت الضرورة القصوى. كان موعدهما في مساء اليوم التالي، وكانت ترتجف من الرعب والكراهية لمجرد تذكرها أنها لابد أن تعود إليه مرة ثانية، واقترض أنطوان الثمانين ألف فرنك من دار النشر التي يعمل بها ولم يدر –لمجرد الحظ– لماذا رفض الطبيب الشهير –بسبب أخلاقي غريب، أو لمجرد الحذر– أن يرى "هؤلاء الناس"، وفيما مضى كان هناك طبيب سويسري بالقرب من لوزان ولكنه يكلف مائتي ألف فرنك، بالإضافة إلى مصاريف السفر، والفكرة إذن مستبعدة، ولهذا لم تشر لأنطوان ولو من بعيد إلى هذا الطبيب؛ فالعنوان للمتحذلقين فقط.

إذن لابد أن تستبعد الذهاب إلى العيادة، أو أن تعتني بها ممرضة، وأن تحقن بالمهدئات، عليها إذن أن تستسلم لهذا الجزار وعليها أن تحاول استعادة صحتها، وقد يستغرق ذلك عدة أشهر، وتبقى صحتها معتلةً، كان كل شيءٍ شنيعًا بشعًا.

وتذكرت بمرارة وهي التي لم تأسف مطلقًا على حماقاتها أنها أخطأت حين تصرفت في عقد اللؤلؤ قبل الأوان، وتوهمت أنها ستنتهي نهاية بطلة قصة

"النخيل المتوحش"، وأن أنطوان.. سينتهي إلى السجن، وأخذت تتجول في الغرفة كالحيوان، وألقت بنظرة إلى وجهها وإلى جسمها النخيل، وخيل إليها أنها أصبحت قبيحة مريضة منهكة، وأنها ستحرم إلى الأبد من تلك الصحة الجيدة التي كانت تحقق لها قدرًا كبيرًا من سعادتها بالحياة.

واشتعل غضبها، وفي الرابعة، اتصلت تليفونيًا بأنطوان، كان صوته متعبًا قلقًا، ولم تجرؤ على أن تفاتحه بخوفها، وأحست في هذه اللحظة لو أنه طلب منها إبقاء الطفل فإنها ستقبل عن طواعية.. ولكنها كانت تحس بالطفل غريبًا عليها، وأحست بالرغبة في أن يحميها أي شخص، وأحست بالأسف لأنه ليس لها صديقة من النساء تستطيع أن تفاتحها بهذه المشاكل النسائية، وتستطيع أن تسألها عن بعض التفاصيل التي لا زالت تحس بالرعب حين تثار في ذهنها، لقد كانت صديقتها الوحيدة هي بولين، وتذكرت تلقائيًا وهي تتمتم باسم بولين اسم شارل الذي حذفته من ذاكرتها كأنه ندم أليم؛ لأنه الاسم الذي يمكن أن يعذب أنطوان.

وبعد لحظة، عرفت أنها ستلجأ إلى شارل، وأن أحدًا لن يوقفها عن ذلك، وأنه المخلوق الوحيد الذي يستطيع تبديد هذا الكابوس، وحدثته في التليفون، وأدارت الرقم القديم في المكتب وحيَّت عاملة التليفون، وكان شارل هناك.

وتملكها انفعال غريبٌ حين سمعت صوته، وتوقفت بعض الوقت حتى تسترد أنفاسها.

– شارل، أريد أن أراك، إنني ألاقي المتاعب.

فقال شارل بصوت هادئ:

– سأرسل إليك السيارة خلال ساعة، كل شيء سينتهي على خير.

وانتظرت لحظة حتى يضع السماعة، وتذكرت لهجته المهذبة جدًا، وأقفلت هي الأخرى، ثم لبست ثيابها بسرعة، وكان عليها أن تنتظر ثلاثة أرباع الساعة، فوضعت جبهتها على زجاج النافذة حتى وصلت السيارة، وحياها السائق بابتهاج، وجلست على المقعد الذي اعتادت أن تجلس عليه وهي تحس براحة كبيرة، وفتحت لها بولين الباب وقبَّلتها.

لم يتغير شيء في الشقة الدافئة الفسيحة الهادئة، وكانت السجادة الزرقاء تحت الأثاث مريحةً للعين، وفي لحظة أحست أن ثيابها غير لائقة، فانتابتها نوبة من الضحك، إنها عودة "الطفل الشقي"، ولكن الطفل هذه المرة يعود حاملًا طفلًا، وعادت السيارة لإحضار شارل، وجلست كالعادة في المطبخ مع بولين أمام كأس من الويسكي.

ووجدت بولين قد نحفت، ورأت عينيها تحيط بهما الغضون، وأحست لوسيل بالرغبة في أن تضع رأسها على كتف بولين، وأن تعترف لها بكل شيء.

أعجبت لوسيل برقة شارل لأنه سمح لها بأن تعود وحدها إلى منزله، كما كانت تفعل من قبل، ولأنه تركها تعتاد على ماضيها، ولم يدُر بخلدها أن هذا التصرف نوع من الذكاء والحصافة، وحين وصل شارل دخل إلى الصالة، وصاح في شبه بهجة: "لوسيل". أحست أنها عادت إلى الوراء ستة أشهر، لقد زاد تحوله، وتقدم في السن أيضًا، وأخذها من ذراعها ليصحبها إلى الصالون، وطلب من بولين كأسين أخريين، فاحتجت بولين، ثم أقفل الباب

وجلس أمامها، وأحست فجأة بالخجل؛ فألقت بنظرة دائرية ولاحظت أن شيئًا لم يتغير، وعادت تقول أن شيئًا لم يتغير حتى هو، وهدأ صوتها وجنت حين تصورت أنه سيظن أنه سيستأنف علاقته معها؛ فأخذت تتحدث بسرعة حتى أنه طلب منها أن تعيد ما قالته:

– شارل، أنا أنتظر مولودًا، ولا أريد إبقاءه، ويجب أن أذهب إلى سويسرا، وليس معي نقود.

وهمس بأنه ظن مثل هذا الظن.

– هل أنتِ متأكدة أنك لا تريدينه؟

– لستُ أملك وسيلة لإبقائه.

واحمر وجهها، ثم قالت:

– ثم إنني أريد البقاء حرة.

– هل أنتِ واثقة أن المسألة ليست مجرد مسألة مالية؟

– واثقة تمامًا..

فنهض وخطا بضع خطوات.

ثم عاد ليضحك في حزن:

– إن الحياة لا تعطينا ما نريد، أليس كذلك؟ كنت أود أن أدفع أي شيء ليكون لي طفل منك، وكان يمكن أن تكون عندك مربيتان، لو شئت، ولكنك ما كنت ستحتفظين بالطفل على أي حال، أليس كذلك؟

– نعم.

– إنك لا تريدين أن يكون لك أي شيء على الإطلاق، أليس كذلك؟ لا زوج، ولا طفل، ولا بيت.. لا شيء على الإطلاق، شيء لا يخلو من الغرابة.

– لا أريد الاحتفاظ بشيء، أنت تعلم ذلك، إنني أكره الامتلاك.

وذهب إلى مكتبه، وكتب شيكًا، وقدمه إليها.

– إنني أعرف عنوانًا في جنيف، وكل ما أرجوكِ هو أن تذهبي إليه حتى أطمئن.

هل تَعِدينني؟

وهزت رأسها، كان حلقها جافًا، وودت لو صرخت ترجوه ألا يكون لطيفًا طيبًا، وألا يهيج الدموع في مآقيها، دموع الراحة والمرارة والجنون.

وجمدت نظرها على السجادة الزرقاء، وشمت رائحة التبغ التي تفوح دائمًا من المكتب، وسمعت صوت بولين التي كانت تضحك مع السائق، وأحست بنوع من الدفء في هذا الملجأ.

وقال شارل:

– إنني أنتظرك دائمًا، أحس بالملل الفظيع دونك، وليس من اللياقة أن أقول لك ذلك الآن، ولكننا لم نعد نتقابل.

وانتزع ضحكة، فاضطربت لوسيل ونهضت فجأة مغمغمةً بصوت حاد:

ـ شكرًا..

وأسرعت نحو الباب ونزلت السلم، ودموعها تتدفق، وسمعت صوت شارل وهو يصيح:

– أعطني بعض أخبارك أو للسكرتيرة.. أرجوك.

ومشت تحت المطر، وأحست أنها أنقذت، وأحست أنها ضائعة.

قال أنطوان:

– لا أريد مليمًا من هذه النقود، ماذا تظنين؟ ماذا يعتقد هذا الرجل؟ هل يظن أنني قواد؟ آخذ منه امرأته واجعله يدفع تكاليف حماقاتي؟

– أنطوان..

– هذه مبالغة.. مبالغة.. مبالغة، إنني لست نموذجًا لأخلاق ولا أدَّعي ذلك، ولكن لكل شيء حدوده، إنك ترفضين إبقاء طفل مني وتكذبين علي، وتخفين عني بيع مجوهراتك، وتفعلين أي شيء من أجل لذائذك الخاصة، ولكني لا يمكن أن أوافق على أن تقترضي مالًا من حبيبك السابق لتقتلي طفل حبيبك الحالي، هذا مستحيل.

– تظن أن من الأخلاق أن أوضع تحت يد جزار تدفع له أجرته، يجري عمليته بدون بنج، ويتركني أموت إذا حدثت أقل مضاعفات؟ أمن الأخلاق أن أظل مريضة وقد يستمر ذلك إلى الأبد؟ طالما أن شارل هو الذي سيدفع ذلك؟

وأطفأ المصباح الأحمر، وتحدثا بصوت خفيض، وهما يخشيان من أن ترفع

المناقشة نبرة الصوت، ولأول مرة، أحسا أنهما يتبادلان الاحتقار..

– إنك جبانة وأنانية، وستجدين نفسك وحيدة في الخمسين، بلا شيء، إن ظرفك البديع لن يبقى، ولن تجدي أحدًا يدفئك.

– إنك جبانٌ أيضًا مثلي، بل منافق، وليس ما يحرجك أنك ستقتل طفلًا، ولكن ما يحرجك هو أن شارل يدفع تكاليف ذلك، إنك تضع شرفك قبل صحتي، قل لي أين تضع شرفك هذا؟

وأحسا بالبرودة، وامتنعا عن التلامس، وأحسا أن ثقل العالم أجمع يحنو فوقهما في هذا السرير الضخم، ورأيا ليالي الوحدة ومتاعب المال ورأيا وسط عاصفة من النيران انفجارات ذرية، ورأيا مستقبلًا عدائيًا عسيرًا، ورأيا الحياة منفصلين.. الحياة من غير حب.

وأحس أنطوان أنه إذا ترك لوسيل تسافر إلى سويسرا؛ فإنه لن يغفر لنفسه ذلك، وأن خاتمة حبهما توشك، وأحس أن هذا الطبيب خطر، وأحس أنها لو أبقت الطفل؛ فإنها ستتعود على الارتباط به، ولكنها ستحس بالملل ولن تحبه، إنها خلقت للرجال ولم تخلق للأطفال، لأنها نفسها لن تبلغ الرشد مطلقًا، وحتى لو بلغت رشدها ذات يوم؛ فلن تحبه على هذا النحو، وأخذ يقول طوال اليوم لنفسه.

– هذا مستحيل! فالنساء تمر ذات يوم بمثل هذا الذي تمر به لوسيل، يحملن أطفالًا، وسيصادفن متاعب مالية، إنها الحياة، وعليها أن تدرك هذا، إن المشكلة هي أنانيتها!

ولكنه كان حين يراها، ويرى وجهها السرحان القلق يحس بأن المسألة

ليست ضعفًا جديرًا بالخجل ولكنها قوة عميقة مختفية حيوانية تلك التي تبعدها عن مجرد الحياة الطبيعية، ولم يستطع أن يخفي أنه يحترم احترامًا غامضًا هذا الذي كان يحتقره فيها منذ عشر دقائق، لقد أصبح لا يمكن لمسها، وقد جعلتها رغبتها في التمتع منبوذةً، وجعلتها أنانيتها عالية الخلق، كما جعلتها عفتها عن المصلحة لا تعبأ بشيء، وأخذ أنطوان يئن أنينًا غريبًا، أنينًا يطفو من طفولته منذ مولده.. من كل مصيره كإنسان.

– أرجوكِ يا لوسيل، أبقي الطفل، إنه فرحتنا الوحيدة..

ولم تجب، وبعد بضع دقائق مد يده نحوها ولمس وجهها؛ فالتقت أصابعه بدموعها التي تنهمر فوق خديها وذقنها، وأخذ يمسحها باضطراب، واستأنف الحديث:

– سأطلب علاوة، وسوف تحل كل المشاكل، إن هناك عددًا كبيرًا من الطلبة الذين يرعون الأطفال في المساء، ويمكن أن نعهد به إلى الحضانة طوال اليوم.. وليس هذا صعبًا، وسيبقى سنة وسنتين وثلاثًا، وسيكون لنا.

وكان يجب أن أقول لك ذلك في اليوم الأول، ولا أعرف لماذا لم أخبرك به.

لابد أن نحاول يا لوسيل.

– إنك تعلم جيدًا لماذا لم تحاول، إنك لا تؤمن بالحكاية أكثر مني.

وكانت تتحدث بصوت هادئ وهي لا تنقطع عن البكاء.

– إننا لم نبدأ هكذا، لقد اختفينا طويلًا، وقد خدعنا الناس وقد جعلناهم تعساء؛ لقد خلقنا للمتعة غير الشرعية، لا لنكون تعساء معًا، إننا لم نجتمع

إلا لسعادتنا، وأنت تعلم يا أنطوان.. فلا أنت ولا أنا تقوى على أن نصبح مثل الآخرين.

وانقلبت على بطنها ووضعت رأسها على كتفه.

– الشمس، الشاطئ، الرفاهية، الحرية.. هي حسابنا يا أنطوان، لسنا نستطيع الآن شيئًا، إنه في داخل رؤوسنا وتحت جلودنا، هكذا.. ولعلنا من يسمونهم "فاسدون" ولكنني لا أحس بالفساد إلا إذا تظاهرت بتصديقهم.

ولم يجب، وظل ينظر إلى البقعة التي يلقيها المصباح على السقف، وأعاد النظر إلى وجهها التائه، وأحس برغبة قوية في أن يراقصها في "بري كاتلان"، واستعاد الحنين القوي إلى دموعه –في هذه اللحظة– وتذكر أنه اشتاق ذات مرة أن تبكي على كتفه حتى يهدئ من روعها، لقد بكت الآن. وقد كسب، ولكنه لا يستطيع تعزيتها، إنه لا يرغب كثيرًا في هذا الطفل، وهو لا يرغب في شيء سواها، وحيدة حرة لا يمكن الإمساك بها؛ فلقد قام حبهما على القلق وعدم الاكتراث ومتعة الجسد، وأحس بدفعة قوية من الحنان وأمسك بهذه المخلوقة.

– نصف امرأة ونصف طفلة– هذه المريضة، هذه التي لا تتحمل المسئولية، أمسك بحبه بين ذراعيه وحدثها في أذنيها:

– غدًا صباحًا، سأمر لإحضار تذاكر الطائرة إلى جنيف.

الفصل الثالث والعشرون

مضى أسبوعان.

واستغرقت العملية الناجحة وقتًا قصيرًا، وحين عادت اتصلت بشارل تليفونيًا لتطمئنه، ولكنه لم يكن موجودًا فتركت له رسالة عند عاملة التليفون، وهي تحس إحساسًا غامضًا بخيبة الأمل.

كان أنطوان مشغولًا في طبعة أدبية جديدة عهد بها إليه، وتحسن مركزه بشكل ملحوظ بسبب انقلاب من هذه الانقلابات الكثيرة التي تحدث في دور النشر، وكانا يتعشيان عادة مع بعض أصدقاء أنطوان أو زملائه أو معارفه، وكانت تندهش للتحسن الذي طرأ على علاقتهما، لم يتحدثا مطلقًا عن جنيف، ولكنهما بدءا يحتاطان. والحق أن ذلك لم يكن صعبًا جدًا؛ لأنها كانت متعبةً في أغلب الأحيان، ولأن أنطوان كان مشغولًا دائمًا، وكان يحدث لهما أن يتبادلا القبلات الحنونة قبل النوم ووجهاهما متقابلان في البداية، ثم ينقلبان ظهرًا لظهرٍ بعد ذلك.

وقابلت جوني في مقهى الفلور، بعد ظهر يوم من أيام فبراير، وكانت السماء غزيرة المطر، كان يقرأ مجلةً فنيةً بعينٍ زائغةٍ؛ لأن شابًا أشقر جذابًا يجلس على مقربة منه، وأخذت لوسيل تقترب منه خِلسةً، ولكنه ناداها ودعاها بحرارة فجلست بجانبه.

وكان لونه قد اسمرّ، وأخذ يضحكها على مغامرات كلير الأخيرة في مصيف جستاد، لقد استبدلت ديانا دبلوماسيها الكوبي بروائي إنجليزي يخونها

مع شبان آخرين، وكان جوني بالطبع متمتعًا بالقصة، وسألها عن أخبار أنطوان وهو زائغ البصر، وأجابته إجابة غامضة، لقد مضى وقت طويل لم تنطلق في ضحكاتها بحريةٍ وخبث.

وقال جوني إن أصدقاءه أذكياءُ عمومًا ولكنه يشك في أنهم جادون.

وقال جوني:

– أتعلمين أن شارل ينتظرك دائمًا، حاولت كلير أن تقذف إلى ذراعيه فتاة صغيرة اسمها كلير فو ولكن العلاقة لم تستمر غير يومين، لم أشهد رجلًا يتثاءب بهذا الإلحاح؛ فهو يتنقل من قاعة الفندق إلى مطعم الفندق إلى بار الفندق يوزع قرفه على الجميع، مريع.. ماذا فعلت فيه؟ ماذا تفعلين للرجال عمومًا؟ إنني أحتاج إلى نصائحك أشد الاحتياج.

وابتسم..

لقد كان يستلطفها دائمًا، وقد ساءه أن يراها تلبس تاييرًا قديمًا وأن يرى شعرها منكوشًا.

لقد كانت دائمًا تتمتع بظرف المراهقة وهذه الروح النائية والمتسلية، ولكنها الآن أصبحت مخيفة حائلة اللون.

وبدأ يقلق عليها.

– هل أنتِ سعيدة؟

فأجابته بالإيجاب بسرعة شديدة، واستنتج أنها تحس بالضجر، على أي

حال، لقد كان بلاسان لينير لطيفًا معه على الدوام؛ فلماذا لا يحاول أن يعيد إليه لوسيل؟ ستكون حركة طيبة.

ونسي تمامًا وهو يبحث داخل دوافعه حركة الغيرة العنيفة التي أحس بها منذ ثمانية أشهر، حين رآها هي وأنطوان يتبادلان النظر، وقد ابيضَّ لونهما من الرغبة وهما ساكنان في حفل الكوكتيل الذي أقامه ذلك الأمريكي حين كان أنطوان ولوسيل في قمة غرامهما.

– لا بد أن تتصلي تليفونيًا بشارل ذات يوم، إن حالته ساءت، وكلير تخشى أن يكون مريضًا مرضًا فظيعًا.

– تريد أن تقول...

– إنهم يتحدثون كثيرًا عن السرطان هذه الأيام، ولكنني أخشى أن هناك شيئًا من الحقيقة.

وكان ينظر بتسلية إلى وجه لوسيل وقد زاد لونها شحوبًا، وشارل .. شارل هذا اللطيف، وحيد في شقته الواسعة، شارل الذي هجره كل هؤلاء الذين لا يحبهم، وكل الفتيات اللاتي يرتمين عليه بسبب نقوده، شارل مريض، لابد أن تتصل به، إن أنطوان على أي حال مشغول طوال الأسبوع القادم بحفلات الغداء والعشاء.

وشكرت لوسيل جوني لأنه نبهها، وتذكر جوني مؤخرًا أن كلير تكره لوسيل، ولكنه لم يرضَ أن يلعب دورًا حقيرًا ضد لوسيل العزيزة.

واتصلت لوسيل بشارل ذات صباح، فاتفقا على تناول الغداء معًا في اليوم التالي.

كان اليوم من أيام الشتاء باردًا مضيئًا والطقس رائعًا، وجدت من الضروري أن تتناول بعض الكوكتيل لتحس بالدفء، وكذلك هو، ومسحت يدا المتردوتيل المائدة، وأصبح الجو دافئًا ممتعًا وهذه الحركة الخفيفة في المطعم كانت حركة مطمئنة.

واختار شارل قائمة الطعام، بمعرفته الدقيقة المعهودة ومذاقه المعروف، وكانت تلاحظه بانتباه؛ لتتبين علامات المرض على وجهه؛ فوجدت أن الشباب قد عاد إليه منذ لقائهما الأخير.

وانتهت إلى أن تقول له وكأنها تؤنبه بلهجة غامضة، وابتسم.

– لقد صادفت المتاعب هذا الشتاء بردٍ لا ينتهي؛ فأمضت ثلاثة أسابيع مميتة في رياضة الشتاء وانتهى البرد.

– قال لي جوني إنك تلقى متاعب صحية..

فقال بابتهاج:

– أنا؟ ليس صحيحًا البتة، كان لابد أن أحدثك عنها لو أن الأمر حقيقي.

– هل تقسم لي على ذلك..؟

فظهرت عليه الدهشة بصدق.

– والله، أقسم لكِ أنك تتمسكين باليمين دائمًا؟

وقد مضى وقت طويل لم أُضطر فيه إلى أن أقسم لك على شيء، وضحك، فضحكت.

– لقد أفهمني جوني أنك مصاب بصراحة.. بالسرطان.

وتوقف عن الضحك.

– ولهذا السبب اتصلتِ بي؟ لا تريدين أن أموت وحدي؟ وهزت رأسها ثم قالت:

– أحسست أيضًا بالرغبة في أن أراك.

ودهشت، لأنها أحست أن ما قالته صدقٌ وحقيقة، وقال شارل بلهجة العتاب:

– إنني حيٌ يا عزيزتي لوسيل، ولكن الموتى يحسون أكثر مما أحس، إنني لا زلت أعمل، ولكنني لا أحس بالجرأة على الحياة بمفردي في بيتي، ولذلك أخرج.

وسكت برهة، ثم استأنف الحديث بصوت أكثر انخفاضًا:

– لازال شعرك أسود، وعيناك دعجاوين، وجمالك فتانًا، ولاحظت أن أحدًا لم يحدثها منذ مدة عن لونها ولا عن هيئتها.

ولا شك أن أنطوان يعتقد أن رغبته تستبعد كل ضرورة للشرح، ولا شك أيضًا أن من اللطيف أن يظل هذا الرجل الناضج في مواجهتها، هذا الرجل الذي يتفحصها كأنها شيء لا يمكن الفوز به، ولا ينظر إليها برغبة يمكن أن تتحقق فورًا.

وقال:

– أتساءل إذا كنتِ حرةً مساء الخميس.

في قصر آل لي مول بجزيرة سان لوي حفلة موسيقية، سيعزفون كونشرتو موزارت للفلوت والهارب، الذي تحبينه وقد قبلت لويز فيرمر أن تجيء للعزف، ولكن ذلك بلا شك سيكون صعبًا عليك.

– لماذا؟

– لست أدري، إذا كان أنطوان يحب الموسيقى، وخاصة إذا كانت الدعوة مني، سوف تقلقه.

إنه شارل على طريقته الخاصة، لقد دعاها مع أنطوان، لأنه مهذب، وهو يفضل أن يراها مع أنطوان على ألا يراها مطلقًا.

إنه ينتظرها ويخرجها من مأزقها، مهما حدث، لقد نسيته ستة أشهر، وكان لابد لها أن تصدق قصة الموت حتى يعلن رأيه.

من أي شيء أتى ذلك؟ وكيف يستطيع أن يتحمل هذه العلاقة غير المتكافئة؟ وكيف يجد ما يغذي ذلك الحب؟ ذلك الكرم وهذا الحنان الذي لا يرد عليه بشيء؟

ومالت نحوه:

– لماذا لا زلت تحبني؟ لماذا؟

وكان صوتها جافًا كأن بينهما ثأرًا.

فتردد لحظة:

– أستطيع أن أقول لك، لأنك لا تحبينني، ويكون هذا سببًا وجيهًا، ولكن هناك أشياء أخرى –فيك– قد خلبتني.

إنها..

وتردد لحظة:

– لست أدري، إحساسي أنكِ تذهبين إلى جهةٍ ما، والله يعلم أنك لا تريدين الذهاب إلى أي مكان، بشيء يشبه الجشع في شخصيتك، والله يعلم أنك لا تريدين امتلاك أي شيء، شيء يشبه المرح الدائم، وأنت تبتسمين نادرًا.

إن الناس يبدون كأن الحياة تغطيهم، وأنتِ تبدين كأنكِ تغطين الحياة، إنني لا أعرف كيف أشرح.

هل تريدين كأسًا بالليمون؟

وقالت شبه حالمة:

– إنه مفيد للصحة.

إن أنطوان سيذهب للعشاء الذي أعدته دار النشر، وسأحضر وحدي، إذا أردت.

وكان لا يريد غير هذا.

وتواعدا على الثامنة والنصف..

وحين ذكر كلمة "البيت" لم يفكر في شارع دي بواتييه؛ فشارع دي بواتييه ليس سوى غرفة، ولم يكن غير هذا، لم يكن بيتًا، حتى لو كان البيت الفردوس والجحيم معًا.

الفصل الرابع والعشرون

كان بيت دي لامول قصرًا من قصور الوزراء في الثامن عشر، ولذلك كانت غرفة فسيحة، وأشجاره شاهقة رائعة، وكان ضوء الشموع دقيقًا ناعمًا (دقيقا لأنه يستطيع أن يستخرج التعبير أو اللاتعبير عن الوجوه، وناعمًا لأنه يمسح العمر من عليها)، وكان الضوء يزيد من المساء، ومن روعة الصالون الكبير.

وكانت الأوركسترا في الداخل فوق شيء يشبه المسرح، وكانت لوسيل– وهي تميل برأسها لتتجنب انعكاس ضوء الشموع في المرايا تستطيع أن ترى نهر السين الأسود المضيء على بعد عشرين مترًا.

وكان هناك نوع من اللاواقعية في هذه السهرة؛ فقد كان المنظر مدهشًا والديكور رائعًا والموسيقى نشوى، ولو أنها جاءت منذ عام مضى لكان يمكن أن يصيبها الملل والتثاؤب، وكان يمكن أن تتمنى أن يتزحلق أحد المدعوين لسوء حظه وأن ينكسر أحد الأكواب بصوتها العالي، ولكن شيئًا ما في داخلها –في تلك الليلة– كان يحب ذلك الاستقرار والنظام والجمال الذي تراه وتسمعه، الذي وصل إليه الموقرون من آل لامول بفضل العمل في المستعمرات، وهمس شارل:

– إنه الكونشرتو الذي تفضلينه.

وكان يجلس بجوارها، واستطاعت أن ترى بريق قميصه تحت السموكنج، وقصة شعره الدقيقة، ويده المعتني بها، تلك اليد الطويلة وهي تمسك كأس

السكوتش التي كان يمدها إليها في نفس اللحظة التي أبدت فيها رغبتها في أن تتناول كأسًا.

كان فاتنًا في ذلك الضوء المتردد، كان يبدو عليه الوثوق من نفسه وثوقًا طفوليًا إلى حدٍ ما، وكانت تبدو عليه السعادة.

وكان جوني قد ابتسم حين رآهما يصلان سويا، ولم تسأله عن سبب أكذوبته.

وكانت العازفة العجوز تميل نحو آلة الهارب، وهي تبتسم نصف ابتسامة، وكانت عازفة القلوب تفحصها بنظرها، وكان يمكن أن ترى حلقها وهو ينبض.

كان هناك جمعٌ مدهش، وكان لا بد وأن يصاب بالخجل؛ فهي ليلة تشبه ليالي بروست، كأنهم كانوا مدعوين عند آل مردوران، وكان موريل الشاب يبدأ أولى خطوات حياته، ولم يكن شارل سوى شخصية "سوان" المشتاقة.

ولكن لم يكن لها دور في هذه الكوميديا الرائعة، كما لم يكن لها من الجريدة التي تعمل بها في ذلك المكتب المتجمد منذ ثلاثة أشهر، كما لم تكن تستطيع أن تجد حياتها خلال هذه الأشهر، لم تكن تحسن المعاشرة، كما لم تكن مثقفةً، وكما لم تكن أماً لأطفال.

كانت لا شيء.

واستطاعت الضربات القليلة التي عزفتها لويز فيرمر على "الهارب" أن تدفع الدموع إلى عينيها..

فقد كانت الأنغام تزداد نعومة، وتزداد حنينًا، فلا تستطيع مقاومتها، كانت هذه الموسيقى غير إنسانية.

إنها تجاهد نفسها لتصبح سعيدة، ولتصبح رقيقة، ولكنها تسبب التعاسة لرجلين في نفس الوقت، وهي لا تدري من هو التعس بالذات.

وتوقفت العازفة العجوز عن العزف، وأصبح "الهارب" وحشيًا إلى درجة أن لوسيل مدت يدها فجأة إلى أول مخلوق على مقربة منها، أي إلى شارل، وأمسكت بيده.

وكانت هذه اليد وهذا الدفء المؤقت بالطبع ولكن دفء حي، كان هذا الملمس للجلد، كان هذا هو كل ما يفصل بينها وبين الموت، بينها وبين الوحدة، بينها وبين الانتظار المرعب، هذا الذي يتدفق ويتجمع معًا، هناك الفلوت والهارب، الشاب الخجول والمرأة العجوز، كانت تتجمع بالتساوي، وفجأة في هذا الازدراء للزمن الذي تثيره موسيقى موزارت.

وأبقى شارل يده في يدها، ومن وقت لآخر، كان يصب بيده الأخرى كأسًا ويقدمها ليد لوسيل الثانية، وشربت كثيرًا بهذه الطريقة، كما استمرت الموسيقى، وزاد اطمئنان يد شارل الطويلة الدافئة في يدها؛ فمن هو هذا الرجل الأشقر الذي يرسلها إلى مكتبات الأفلام السينمائية تحت وابل المطر؟ وهذا الذي يريدها أن تعمل، ويريدها أن تذهب لأنصاف الجزارين لكي تجهض نفسها؟ من هو هذا الأنطوان، الذي يعتبر هؤلاء الرجال الظرفاء، وهذا الضوء الرائع الذي ترسله الشموع، وهذا العمق الهادئ للأرائك، ويعتبر موزارت، يعتبر كل ذلك شيئا منحلًا، لا شك أنه لا يقول شيئًا عن

الأرائك ولا عن الموسيقى ولا الشموع ولا موزارت، ولكنه يعني بذلك هؤلاء الذين يمنحونه في هذه اللحظة كل هذا، وفوق ذلك هذا الشراب الذهبي المثلج المثير للحماس، والذي ينساب في حلقها كالماء.

وأصبحت لوسيل سكرى، جامدة ممتلئة، تزم بقبضتها على يد شارل، كانت تحب شارل، كانت تحب هذا الرجل الصامت الحنون، وكانت تحبه دائمًا، ولم تعد تريد أن تتركه، ولذلك اندهشت من ضحكته المتوترة، حين أعلنت حبها له وهما داخل السيارة.

وقال لها:

– إنني أهب كل ما أملكه حتى أصدقك، ولكنك قد سكرت، لست أنا الذي تحبينه.

والأكيد أنها حين رأت شعر أنطوان على الوسادة وذراعه الطويلة مكانها، علمت أن شارل محق فيما يقول، وأحست بالندم والأسى للمرة الأولى.. وأحست بالندم مرات أخرى عديدة بلا شك. إنها كانت تحب أنطوان دائمًا، ولكنها لم تعد الآن تحب أن تحبه، ولم تعد تحب حياتهما المشتركة، واختفاء "اللمسة" التي تسببها قلة المال ورتابة الأيام.

وكان هو أيضًا يحس بذلك، ولذلك ضاعف من نشاطه الخارجي، وكاد يهملها؛ فالساعات الخاوية التي كانت تمر فيما مضى مليئة بانتظاره، وفي انتظاره، أصبحت خاوية فعلًا، لأنها لم تعد تنتظره كمعجزة، ولكن كعادة. وكانت ترى شارل أحيانًا، ولم تعد تتكلم عنه لأنطوان، فلم يعد من المفيد أن تضيف الغيرة إلى هذا العذاب المستسلم في عينيه الصفراوين.

وفي الليل، أصبحت أقرب من الاشتباك في صراع من الالتحام في غرام، وهذا العلم الذي استخدماه؛ لكي يطيلا متعة كل منهما، أصبح وسيلة وحشية للانتهاء بسرعة، ليس بسبب الملل، ولكن بسبب الخوف، أصبحا ينامان على شكاياتهما، ونسيا أن هذه الشكاوى كانت فيما مضى سببًا لحبهما.

وفي إحدى الأمسيات، كانت قد أفرطت في الشراب، وكانت في هذه الأيام تفرط فيه؛ فعادت إلى شارل، ولم تكن تدرك ما تفعله وقالت لنفسها ببساطة أنها سوف تخبر أنطوان بما حدث، وعادت في الفجر وأيقظته.

منذ ستة أشهر مضت كان في نفس الحجرة مجنونًا بحبها، حتى إنه ظن أنه فقدها، وأن التي فقدها هي ديانا وليست لوسيل، لكنه الآن فقدها إلى الأبد، إنه الآن قد فقد سلطته أو قوته، أو شيئًا ما لا يعرفه، وأصبحت الأيام العديدة تمر به، وهو يمضغ بعناد هذه الهزيمة وهذا الإحساس بالعجز.

وكان لا بد من أن يقال له أن لا فائدة، ومن أنها كانت تخونه دائمًا مع شارل، مع الحياة، مع طبيعته الخاصة؛ ولكنه استعاد شهور الصيف، واستعاد مذاق دموعها في شهر أغسطس وهي تتساقط فوق كتفه، ولا ينطق بكلمة.

ومنذ شهر، ومنذ حادث جنيف بالذات أصبح ينتظر ذهابهما.

ولعل هناك أشياء تحدث بين الرجل والمرأة، دون أن تجرحهما جرحًا لا يعالج مهما كانا أحرارًا، ولعل تلك الإقامة في جنيف كانت جزءًا من هذا الجرح العميق أو لعله قرر ذلك، منذ ضحكا تلك الضحكات الصبيانية المجنونة، وهما عند كلير سانتريه، ولا بد له من انقضاء وقت طويل حتى يسترد

نفسه، وقد تأكد له ذلك وهو ينظر في المرآة إلى وجه لوسيل المتعب وعينيها الرماديتين اللتين تحيط بهما الغضون.

إنه يعرف كل زاوية من زوايا وجهها، وكل انحناءة من انحناءات جسدها، وليس من السهل أن يتخلص من كل ذلك كأنما يتحدثان أحاديث عادية باهتة، وكانت تحس بالخجل؛ فقد كان الحديث معه، ولكنه لم يصرخ حاليًا من العاطفة، ولعله كان يكفي أن يصرخ حتى تقرر البقاء.

لكنه قال:

– على أي حال، لم تكوني سعيدة.

– وأنت كذلك.

وتبادلا ابتسامة اعتذار غريبة وضحكة مرتبكة واجتماعية.

فوقفت، وتركت المكان وحين أقفلت الباب، صاح باسمها بالرغم منه.

– لوسيل، لوسيل.

وعادت على قدميها إلى شارل، إلى الوحدة، وهي تعلم أنها قد ابتعدت تمامًا عن أي وجود يليق بكلمة الوجود..

وكانت تعلم أن الشيء الذي لم يسرق منها هو هذا الإحساس.

الفصل الخامس والعشرون

وبعد عامين.. التقيا عند كلير سانتريه، انتهت القصة بأن تزوجت لوسيل من شارل، وأصبح أنطوان مديرًا لمجموعة جديدة من الكتب، وقد دعي بهذه الصفة، وأصبحت أعماله تستغرقه، ولم يعد يميل إلى أن يسمح لنفسه وهو يتكلم.

كانت لوسيل لا تزال على رشاقتها، تبدو السعادة واضحة على ملامحها، وكان بين المدعوين شابٌّ إنجليزي يدعى سوامز لا ينقطع عن الابتسام لها، وكان أنطوان يجلس إلى جانبها على المائدة، إما بالصدفة أو بفضل المؤامرة الكبرى التي دبرتها كلير، فأخذا يتحدثان بشيء من التكلف عن الأدب.

وسألها الشاب الإنجليزي الذي كان يجلس في نهاية المائدة:

– من أين يأتي هذا التعبير "الخفقات"؟

– طبقًا لقاموس "ليتريه"؛ فهي دقات الطبول التي تعلن الهزيمة كما قال أحد المتبحرين.

وصاحت كلير سانتريه وهي تضم يديها:

– هذا شاعر مجنون.

إنني أعلم أن في لغتكم عددًا يفوق كلمات لغتنا يا عزيزي سوامز، ولكن عليك أن تعترف أن قصب السبق يبقى في الشعر لفرنسا.

وكانت المسافة التي تفصل بين أنطوان ولوسيل لا تزيد على متر واحد، ولكن كلمة "الخفقات" لم تعد تثير في فؤاديهما شيئًا، ولم تعد كلمات كلير سانتريه تثير فيها ذلك الضحك المجنون الذي كانت تثيره في الأيام الخوالي.

الفهرس